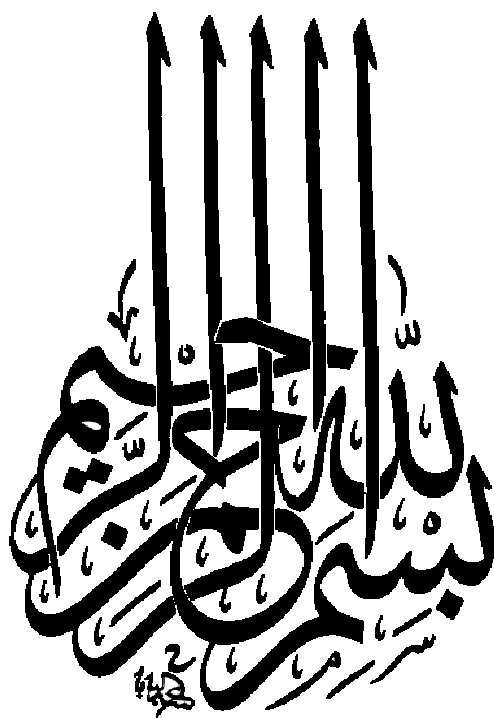


آدم وهواء
الخليفة دسكنه

آدم و حواء الخليفة و سلمته

د. حامد الإدريسي

دار ابن الجوزي



يدور هذا الكتاب حول الآيتين الكريمتين

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾
[البقرة: ٣٠].

وقوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

الفهرس

١١	المقدمة
١٧	الفصل الأول: الخليفة؛ ما هو؟
١٧	القرآن المثاني :
١٨	معنى الخليفة :
١٩	أولاً: الخليفة في اللغة :
٢٠	الخليفة في الاستخدام القرآني :
٢٠	لفظ «خليفة» :
٢١	لفظ «الخلائف» :
٢٢	لفظ «الخلفاء» :
٢٤	الخلاصة :
٢٤	ثانياً: لماذا أخبر الله الملائكة بهذا الخبر؟
٢٩	ثالثاً: خليفة عن الله، أم عن خلق سابقين؟
٣٤	رابعاً: كيف عرفت الملائكة أن آدم وذريته يفسدون؟
٣٧	خامساً: ما وجه تعليلهم للاعتراض بأنهم يسبحون بحمد الله ويقدمون؟
٣٨	سادساً: المعنى الراجح للخليفة :
٣٩	قصة أم تعليل؟
٤١	مشهد التنصيب
٤٣	مشهد الاعتراض
٤٥	مشهد التعليل
٤٧	مشهد التكريم
٤٧	أين حواء؟
٥٠	لماذا لم تسجد الملائكة لحواء؟

- أول ظهور لحواء ﷺ في المشهد ٥١
- من الاستخلاف التأسيسي إلى الاستخلاف التكميلي ٥٣
- إغفال أم إعفاء؟ ٥٥
- الفصل الثاني: آدم الخليفة** ٥٧
- مؤهلات عادلة من خالق عادل حكيم ٥٩
- المهام السبعة للخليفة ٦٢
- آدم في هرم الرُقِّيِّ الإنساني ٦٧
- لماذا غابت المرأة عن مشاهد الإسلام العظيمة؟ ٧١
- شقائق الرجال في الأحكام، لا في الأدوار ٧٤
- لماذا لم تقدّم المرأة ما قدّم الرجل؟ ٧٦
- الرجل صنع الحضارة، والمرأة صنعت الإنسان ٧٩
- الأفضلية، لا الخيرية ٨١
- المظاهر النفسية للاستخلاف التأسيسي للرجل ٨٢
- القيادة: ٨٢
- هل أفلح قوم بلقيس حين ولّوا أمرهم امرأة؟ ٨٦
- الخليفة في بيته ٩٢
- الخليفة مع أبنائه ٩٨
- طاعة أم عبودية؟ ١٠١
- القوامة أو التفاهم ١٠٣
- القوامة والتقويم ١٠٧
- قائد لا طاغية ١٠٩
- القوامة سر استقرار الأسرة ١١١
- الخليفة ورغبته في التوسّع ١١٣
- الخليفة والانغماس في طلب المعاش ١١٦

بِمَ فَضَّلَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ؟	١١٩
لماذا لا نقول: إنهما متفاضلان؟	١٢٤
هل يُنْسَبُ هذا التحيُّزُ لِلَّهِ ﷻ؟	١٢٦
ليتنا كنَّا رجالًا!!	١٢٨
العقل الناقص، والذكاء الكامل	١٣٠
الفصل الأول: لخليفة؛ ما هو؟	١٣٣
﴿لَيْسَ كُنْ إِيَّاهَا﴾	١٣٥
مهام الاستخلاف التكميلي	١٣٨
١ - الحاجة الغريزية:	١٣٨
٢ - العاطفة:	١٤٠
٣ - الخدمة:	١٤٤
٤ - الحفظ:	١٥٠
٥ - المؤانسة:	١٥٢
٦ - النسل المخلد للذكر:	١٥٣
مَن الذي يسكن للآخر؟	١٥٦
القرار أساسُ السكن	١٥٧
أحكام الشريعة ومقصد السكن	١٦١
معادلة الاستقرار الأسري	١٦٣
كيف حمى اللَّهُ ﷻ المرأة من تسلُّط الرجال؟	١٦٦
القوَّة الناعمة	١٦٨
القوة الأخلاقية	١٧٣
القوَّة الدينيَّة	١٧٥
القوَّة الاجتماعية	١٧٧
لماذا لا نكلِّف المرأة بمهام الخليفة؟	١٧٩

- ١٨٤ ألم تجاهد النساء مع رسول الله ﷺ ؟
- ١٨٤ أولاً: متى جاهدت المرأة ؟
- ١٨٥ ثانياً: كم من النساء جاهدن مع رسول الله ﷺ :
- ١٨٨ ثالثاً: هل استقر الأمر على ذلك ؟ :
- ١٩٠ طبيبات ومعلّمات .
- ١٩٣ احتقار الأمومة .
- ١٩٥ المرأة والأحلام الوهمية العظيمة .
- ١٩٧ المرأة والرجل واتحاد الهدف .
- ٢٠١ قرية شين، وقرية قاف .
- ٢٠٤ المال القيام .
- ٢٠٨ رويدك أنجشة !
- ٢١٥ الخاتمة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه .

وبعد :

لماذا لم تسجد الملائكة لحواء؟ ولماذا تم إغفاؤها من حضور هذا الحفل البهيج؟ ولماذا دارت كل أحداث تنصيب الخليفة في وقت لم تخلق فيه حواء بعد؟

ماذا تخفي هذه الإشارة من معاني، وماذا يترتب على هذا الإغفاء من إعفاءات في المهام التي ستتناسب والدور الفطري لحواء وما هيأها به الخالق الحكيم من صفات خاصة تجعل منها كائنا مختلفا عن الرجل في صفاته وأهدافه واستعداداته وآماله، وأيضا في تكاليفه الشرعية .

إن هذا الكتاب يناقش فلسفة الإسلام في تشريعه لأحكام المرأة والرجل والزواج وما فضل به الخالق الحكيم بعضهم على بعض، في قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]؛ حيث يمكن - إن صحت فرضيات هذا الكتاب - أن نجيب عن كثير من الاعتراضات التي يوجهها أعداء الإسلام إلى الشريعة، ويشغبون بها على الأحكام، ويحدثون بها شكوكا عند المؤمنين، وينسبون بها النقص إلى أحكام رب العالمين، حيث يصبح تفضيل الرجل

بالاستخلاف وأبعاده التشريعية تفضيلاً تحيُزياً حاشاً لله، بينما يفترض الكتاب أن هذا التفضيل التكليفي قد بني على صفات خاصة جعلته من باب ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فيصير تفاضلاً تكاملياً لا تنافسياً، وتتضح دائرة المسؤولية بين الرجل والمرأة عبر مبدأ التساخر الذي جعله الله ﷻ أساس التخادم الذي هو أساس دورة الحياة، قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَيْكَ حَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

إن كثيراً من المسائل التي يطرحها هذا الكتاب تجيب عن معضلة لم تكن موجودة في العصور السابقة، ولذلك فإن هذه الإشكاليات هي نوازل فكرية يجد الكاتب فيها نفسه أمام تساؤلات لم تطرح على من سبقنا، لذلك تبقى هذه المحاولة في حاجة لمزيد من البحث والنظر لتكون في مستوى الخطاب النسوي العالمي وصنوه النسوي الإسلامي، الذي يعتبر نقضه من أولى أوليات هذا الكتاب، وذلك عبر تأصيل مفهوم الخليفة وسكنه، الذي يقسم الحياة بين الرجل والمرأة على أساس الاختلاف الأساسي بين دور الخليفة الذي أعلن الله للملائكة خلافته بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وبين حواء التي أخبرنا الله عن علة إيجادها بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] فكان الكتاب كله في تقريب هذين المعنيين، وتوضيح هاتين الآيتين، وتحويلهما إلى نسق تفسيري يساعدا على فهم كل الفوارق التي نجدها في نمط عيش الرجل، وفي نمط عيش المرأة، وفي الأحكام التي ترتبت على هذه الفوارق.

لقد أنهيت المسودة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٤٣٠ لكنني تمهلت كثيراً في نشره، وعرضته على مجموعة من العلماء قبل أن أستجمع

الرغبة في بثه بين الناس، لما سيشكله هذا الطرح من نقلة في الحوار الإسلامي النسوي، والإسلامي الإسلامي، حول هذه الإشكالية التي هي من أكبر إشكاليات القرن الذي نعيشه .

لم تكن إشكالية المرأة وحقوقها، لتخترق الصف الإسلامي لولا ما قام به بعض العلماء الذين وجدوا أنفسهم فجأة أمام نمط عيش غربي، وأما مبادئ اجتماعية جديدة تناقض تماما مع ما عاشت عليه المرأة المسلمة عبر التاريخ، فحاولوا أن يخرجوا من هذا التناقض الحضاري بإيجاد خطاب جديد يجعل المرأة المسلمة تظهر بمظهر متناسق مع الواقع الغربي الذي يرى في المرأة شريكا للرجل في كل شيء، إلا في قطعة القماش التي تغطي به رأسها، ولذلك جلبوا من النصوص ما يدعم مشاركة المرأة للرجل، وورقعو ضعف تلك النصوص ليصنعوا صورة جديدة لمجتمع الصحابة، تصوّرهم وكأنهم كانوا يصطفون في الجهاد صفين، صف فيه الرجال وصف فيه النساء، ويتحلقون في المسجد حلقتين، حلقة فيها الرجال وحلقة فيها النساء، بل صاروا يبحثون عن كل من كان لها في العلم مشاركة ليصفوها بالعالمية والفقيرة والمحدثة، وما كانت كثير منهن تبلغ عشر معشار هذا الوصف، بل صارت رفيذة عليها السلام التي ضمدت جراح مريض: طيبة مسلمة، وصارت خديجة عليها السلام وهي التي لم تكن تغادر بيتها ولا تزاول التجارة بنفسها: تاجرة مضاربة تزاحم التجار - بزعمهم -، حتى ليخيل إلى القارئ أنها كانت تخرج في رحلتي الصيف والشتاء، تساوم السلع، وتزايد في السعر، حاشاها عليها السلام، وهكذا استمر جمع هذه المواقف التي لم يصح كثير منها، جمعت من أجل تقريب نمط العيش الحالي من نمط عيش المسلمة لتي لم تكن تغادر بيتها إلا استثناء .

وهكذا ولأول مرة أصبح الخطاب الشرعي متصالحا مع نمط العيش

الجديد، وتغولت الفكرة النسوية داخل بعض الجماعات الإسلامية ليتحول فجأة قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] إلى نص خاص بأمهات المؤمنين ﷺ، ولتصبح كل النصوص الشرعية التي تأمر بالستر والحجاب وتنهى عن الاختلاط والسفور، أقوالاً متطرفة ورؤى ضيقة وخطابات تمييزية ضد المرأة.

لذلك أردت من هذا الكتاب الرجوع إلى أصل المسألة لفهم فلسفة الإسلام في أحكامه الشرعية التي فاضل فيها بين المرأة والرجل من أجل أن تعود المرأة إلى خدرها وترجع إليها أنوثتها، وتضع عن نفسها عباءة الرجل المثقلة بهموم الرزق وشقاء العمل، وتتصالح مع أمر الله الأزلي ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] لينتظم شمل الأسرة من جديد...

ولعلك يا قارئ الكريم أن تجد كثيرا من فصول هذا الكتاب مشحونة بعاطفة جياشة وعبارات متألمة، فلعلك تعذر أخاك، فما نراه يشيب له الولدان، وما وصلنا إليه لم يكن يخطر على قلب رجل قط، فمنظر امرأة مسلمة متزينة تطرق أبواب المدراء في المكاتب من أجل الحصول على فرصة عمل، يجعلك تعيد النظر في كل هذه المنظومة التي نعيش عليها اليوم، والله من وراء القصد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.





الفصل الأول

ماهية الخليفة؟



الخليفة؛ ما هو؟



﴿ القرآن المثاني ﴾

القرآن دستور رب العالمين، لذلك فهو مرصوص مصفوف كل كلمة فيه تحمل معانيها دون زيادة أو نقصان، فليس فيه تكرار ولا استطراد ولا تهويل ولا مبالغة، ولكي تتصور ذلك: انظر في الدساتير التي يضعها البشر، فإنك تجد كل كلمة قد وضعت بعناية شديدة لتؤدي معنى محددا وتمنع ما سواه من المعاني. وكتاب الله كذلك من باب أولى، فهو كلام الخالق الذي أراد به إرشاد الخلق وختم الرسالة، فلن تجد فيه استطرادا مملا ولا اختزالا مخلا.

نجد هذا الكتاب المحكم قد ركز على مواضيع محددة وثنى فيها الكلام مثاني، كما جاء وصف ذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مِّثْقَالِي﴾ [الزمر: ٢٣] فالمعاني التي ثنيت في القرآن إنما كررت لأهميتها وكثرة احتياج الناس إليها، ومن ذلك قصة خلق آدم التي تكررت في القرآن في أكثر من موضع وبتفصيل كبير في أطول سورة من سور القرآن الكريم سورة البقرة والتي تسمى فسطاط القرآن لأنها جمعت أهم أحكام الشريعة الإسلامية.

لذلك فإن هذه القصة هي النموذج الذي يذكر آدم بدوره وحواء بدورها، هي الصورة الأولى لأول صراع بين الإنسان وعدوه الأزلي،

هي الهدف الذي سيعيش من أجله آدم وتعيش من أجله حواء، فليس تكرارها في القرآن الكريم إلا لأهميتها في رسم الرؤية وتحديد الخطة واستحضار المعوقات، إنها خطة عيش كاملة.

لقد أخبر الله الملائكة أنه سيخلق خليفة، ولم يقل لهم إنه سيخلق إنسانا، فما الذي وقع في خلد الملائكة حين سمعوا هذا الخبر لأول وهلة، وما هو المقصد من هذا الخليفة الذي لم يعرف له سابق على وجه الأرض؟

معنى الخليفة:

إن أهم المعاني التي يدور عليها بحثنا في هذا الكتاب معان مستخلصة بشكل مباشر من دلالات مصطلح الخليفة الذي استخدمه القرآن في التعريف بهذا المخلوق الذي شغل التفكير به الملائكة على من الملائكة، وسأحاول من خلال هذا المبحث أن أحدد إطار المعاني التي يتيح لنا هذا المصطلح التحرك من خلالها لكي نجلي المعنى ونحدد ما هو المطلوب من آدم كي يحقق مناهج التكليف بمهتمة الجديدة وخلافته على الملائكة وعلى الكون.

وسوف نحاول أن نتناول الموضوع من خلال طرح مجموعة من التساؤلات التي يفترضها سياق النص في كل مراحل الحوار بين الملائكة وخالق آدم سبحانه، إذ نفترض أن هذه الطريقة ستساعدنا على تفكيك الآية وفهم مراد الله ﷻ، وهذه الأسئلة هي كالتالي:

- ١ - ما الخليفة في اللغة؟
- ٢ - ما الخليفة في الاستخدام القرآني؟
- ٣ - لماذا أخبر الله الملائكة بهذا الخبر؟
- ٤ - هل المقصد من الخليفة أنه يخلف الله في أرضه أم أنه خليفة عن خلق سابقين؟

- ٥ - كيف عرفت الملائكة أنه وذريته يفسدون في الأرض؟
 - ٦ - ما وجه تعليلهم لاعتراضهم بأنهم يسبحون بحمد الله ويقدسونه له؟
 - ٧ - ما المعنى الراجح للخليفة؟
- ولنسر بإذن الله في هذا الترتيب لعنا نجلي مشكلات هذه الآية التي اختلفت فيها أقوال المفسرين .

أولاً: الخلافة في اللغة:

□ قال ابن منظور: «واستخلف فلانا من فلان: جعله مكانه . وخلف فلان فلانا إذا كان خليفته . يقال: خلفه في قومه خلافة . وفي التنزيل العزيز: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢] وخلفته أيضا إذا جئت بعده . ويقال: خلفت فلانا أخلفه تخليفا واستخلفته أنا جعلته خليفتي . واستخلفه: جعله خليفة . والخليفة: الذي يستخلف ممن قبله، والجمع خلائف... والخلافة: الإمارة... قال الزجاج جاز أن يقال للأئمة خلفاء الله في أرضه بقوله ﷺ: يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض . وقال غيره: الخليفة السلطان الأعظم . وقد يؤنث... وقال الفراء في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩] يخلف بعضكم بعضا، قال: جعل أمة محمد خلائف كل الأمم، قال: وقيل خلائف في الأرض»^(١).

والذي يظهر أن معنى الخليفة لم يكن في أساس استعماله يطلق على معنى الإمارة إلا في الاستخدام المتأخر الذي حصل بعد تولي أبي بكر رضي الله عنه، ويدل على ذلك القصة التي رواها ابن عبد البر في الاستيعاب قال:

(١) «لسان العرب» (٤٨/٩).

«قال عمر لما ولي: كان أبو بكر يقال له خليفة رسول الله ﷺ، فكيف يقال لي خليفة خليفة رسول الله، يطول هذا! قال: فقال له المغيرة بن شعبة: أنت أميرنا، ونحن المؤمنون. فأنت أمير المؤمنين. قال: فذاك إذن»^(١).

فيتلخص من ذلك أن كلمة الخلافة تدل على نيابة شريفة لأمر هام ومهام محددة، وتدل على مجرد الاستخلاف الطبيعي الذي ينوب فيه جيل عن جيل.

❧ الخليفة في الاستخدام القرآني:

جاء لفظ الخليفة بالإفراد «خليفة» وبالجمع على ضربين «خلائف» و«خلفاء».

❑ لفظ «خليفة»:

وردت كلمة خليفة في القرآن مرتين، هذه التي في البقرة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، والتي في سورة «ص»: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وظاهر معناها هنا أنه يقصد الحكم بشرع الله وتنفيذ أوامره بالقسط بين عباده، وهو القول الذي يرجحه السياق إذ أتبع ذلك قوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

❑ قال الرازي في «تفسيره»: «في تفسير كونه خليفة وجهان:

الأول: جعلناك تخلف من تقدمك من الأنبياء في الدعاء إلى الله تعالى، وفي سياسة الناس لأن خليفة الرجل من يخلفه، وذلك إنما يعقل في حق من يصح عليه الغيبة، وذلك على الله محال.

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (٣/١١٥٠).

الثاني: إنا جعلناك مالكا للناس ونافذ الحكم فيهم، فبهذا التأويل يسمى خليفة، ومنه يقال خلفاء الله في أرضه، وحاصله أن خليفة الرجل يكون نافذ الحكم في رعيته، وحقيقة الخلافة ممتنعة في حق الله، فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة للزوم في تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم»^(١).

□ قال ابن كثير: «أي جعلكم تعمرون الأرض جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن، وخلفا بعد سلف. قاله ابن زيد وغيره، كما قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف].

□ قال الشوكاني: «استخلفكم في الأرض، أي جعلكم ملوكا فيها، كما تقدم في قصة هود»^(٢).

□ لفظ «الخلايف» :

أما لفظ الخلايف فقد ورد في أربعة مواضع :

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣] ثم جعلناكم خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ [يونس: ١٤] [يونس: ١٤].^(٣)

(١) «تفسير الرازي» (١٩٩/٢٦).

(٢) «فتح القدير» (٢٥٢/٢).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣٨٤/٣).

□ وقال ابن كثير: «أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرسل فيما جاء وهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» (١) (٢).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَفًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُذْذَرِينَ﴾ (٧٣) [يونس].

□ قال ابن كثير: «﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَفًا﴾ أي: في الأرض» (٣).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَفًا فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٣٦) [فاطر].

□ قال ابن كثير: «يخلف قوم لآخرين قبلهم، وجيل لجيل قبلهم، كما قال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]» (٤).

□ لفظ «الخلفاء»:

ورد لفظ الخلفاء ثلاث مرات:

في قوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَا أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ

(١) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢٥٢/٤).

(٣) السابق (٢٨٤/٤).

(٤) السابق (٥٥٧/٦).

بَصْطَةً فَادْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٦﴾ [الأعراف].

□ قال ابن كثير: «أي واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح، الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته، لما خالفوه وكذبوه»^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَادْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى: ﴿أَمَنْ يُحِبُّ الْمَضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: قوما يخلف بعضهم بعضا كما قدمنا تقريره. وهكذا هذه الآية: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: أمة بعد أمة، وجيلا بعد جيل، وقوما بعد قوم. ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين، كما خلق آدم من تراب. ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يمت أحدا حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، فكانت تضيق عليهم الأرض وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض. ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثرهم غاية الكثرة، ويذرهم في الأرض، ويجعلهم قرونا بعد قرون، وأما بعد أمم، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية، كما قدر ذلك ﷻ، وكما أحصاهم وعدهم عدا، ثم يقيم القيامة، ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله.

(١) السابق (٤٣٤/٣).

□ الخلاصة:

مما سبق يظهر لنا أن لفظ الخليفة المستعمل في الدلالة على مهمة آدم العظيمة، هو لفظ خاص لخلافة خاصة، بخلاف ألفاظ الخلفاء والخلائف التي يقصد بها وراثه قوم سابقين، وهذا هو الذي سيتضح لك أكثر بعد أن نفصل في معنى الخليفة.

✍️ ثانيًا: لماذا أخبر الله الملائكة بهذا الخبر؟

إن هذا الحدث فريد في سياق القرآن، فلم يوجد أمر آخر أراد الله إحداثه فأعلم به ملائكته، كما لم يوجد أمر أبدى فيه الملائكة استغرابا يشبه الاعتراض إلا هذا الأمر، لذا فإن النظر في سبب هذا الإعلام المتفرد يقودنا إلى استشراف أهمية هذا الأمر الذي سيحدثه الله في عالم الملكوت، وأنه أمر ليس للملائكة به سابق عهد.

تكمّن هنا فكرة أساسية في مفهوم العبادة التي هي الغاية من خلق الإنسان الذي هو الغاية من خلق هذه الدنيا، فهذه الدنيا قد خلقت ليلبونا الله فيها أينما أحسن عملا كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [٢] [الملك]، وقال ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

ويخبرنا في آيات أخرى أن هذه السوق القائمة - بتعبير ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - إنما قامت من أجل هذا الإنسان، وبما أنها قامت لأجله فإنها ستفنى بفنائها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [١] وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ [٢] إلى قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [١٤] [التكوير]؛ فكل هذه المخلوقات ستفنى بفناء الإنسان وستحول الأرض غير الأرض وتكون

الجبـال كثيبـا مهيلـا وتنشق السماء وتطوى كما يطوي السجل الكتاب، فـدلت الآيات بمنصوصها ومفهومها على أن هذا الكون كله إنما هو لأجل هذا الإنسان، وهنا يبدو الإعلان عن هذا الحدث أمرا جللا يهم الكون كله، فولادة الإنسان بداية العد التنازلي لعمر هذه الحياة، وبداية للمشاهد التي من أجلها أعدت هذه المنصة بكل تفاصيلها، لذا فإن هذا الأمر المختلف عن كل الأوامر التكوينية السابقة، يتطلب إعلام الملائكة وأهل السماوات لاستقبال هذا الخليفة والاستعداد له، بل إشراكهم في معرفة الغاية التي من أجلها خلق الله هذا الإنسان سيدا لهذا الكون.

■ نجد الإمام الزمخشري قد سبق إلى طرح هذا التساؤل؛ فقال: «فإن قلت: لأي غرض أخبرهم بذلك؟ قلت: ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجبوا به فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم»^(١).

ولقد أشار سيد قطب إلى هذا المعنى دون أن يجيبنا جوابا شافيا عن الحكمة من إعلام الملائكة بهذا الأمر الذي يغير العادة الربانية في الخلق والإبداع:

■ يقول: «وإذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود، زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحويل والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله - بإذن الله - في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه.

وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة،

(١) «الكشاف» (١/١٥٤).

والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية»^(١).
وقد حاول البقاعي أيضا أن يقف على سبب هذا الإخبار الذي نشأت عنه هذه المحاورة:

□ فقال: «فالإرادة الإلهية قد شاءت أن تعلن تسليم الكون لهذا الإنسان عبر هذا المشهد العظيم المبدي لمكانة هذا الإنسان عبر هذا الحوار العجيب. وأيضا فإن في ذلك بيانا لمكانة هذا الإنسان وتعريفا له بقيمته عند الله، وجعل سبحانه هذا التذكير في سياق داع إلى عبادته وقائد إلى محبته حيث متّ إلى هذا النوع الآدمي بنعمه عليهم وإحسانه إليهم قبل إيجادهم، فذكر لهم ما حاجّ به ملائكته عنهم، وما شرف به أباهم آدم من العلم وأمر الملائكة المقربين بالسجود له، ثم ما وقع لإبليس معه وهما عبدان من عبيده فتاب عليه ولم يتب على إبليس مع سبقه له بالعبادة بل أوجب طرده وأبدّ بعده»^(٢).

ولكي نرى المعنى من جهة أخرى لننظر إلى الآية بعين رجل كان مسيحيا وهداه الله إلى الإسلام بسبب هذه الآية، لقد كان يرى نزول الإنسان إلى الأرض عقوبة حلت عليه لأنه أكل من الشجرة، إلا أنه فوجئ وهو يقرأ القرآن أول مرة بأن معنى الخليفة في القرآن الكريم لا يتضمن أي معنى من معاني العقوبة، إنه عالم الرياضيات جفري لانج في كتابه «حتى الملائكة تسأل» حين قاده تساؤل الملائكة هذا إلى الإيمان، فلقد وجد فيه جوابا عن سؤاله الذي عاش بين جنبه طيلة حياته، والذي أدى به إلى الإلحاد لعدم إدراكه فائدة من خلق هذا

(١) «في ظلال القرآن» (١/٥٦).

(٢) «نظم الدرر» عند الآية السابقة.

الإنسان الذي رآه وهو يفسد في الأرض ويسفك الدماء .

□ يقول د. جفري: «فالمشهد هنا في الجنة حيث يخاطب الله الملائكة أنه يريد أن يستخلف الإنسان في الأرض، ولم يكن آدم ﷺ خلق كأول إنسان بعد، ومن خلال الآيات التالية يبدو واضحاً أن آدم ﷺ كان بريئاً من أي معصية، ومع ذلك فقد أراد الله أن يسكنه وذريته الأرض كخلفاء، كما في الأعراف والنمل وفاطر، وليس هناك إشارة هنا على أن الحياة الدنيا هي بمثابة عقوبة، فكلمة خليفة vicaK vicegerent تعني مندوباً وممثلاً ووكيلاً، وعلى هذا يبدو أن الإنسان قصد من استخلافه أن يمثل الله على الأرض، وبمعنى ما، أن يتصرف نيابة عنه .

وأما جواب الملائكة فهو رائع ومقلق في الوقت نفسه، والسؤال في جوهره يقول: لماذا (يا رب) تخلق وتجعل على الأرض من في طبعه الإفساد وارتكاب الجرائم المروعة، لماذا تخلق هذا المخلوق الذي سوف يكون المسبب والمتلقي للعذاب العظيم»^(١).

إن أول ما استوقف د. جفري لانج في هذا النص حين قرأه قبل إسلامه: هو هذا التساؤل الذي طرحته الملائكة على الخالق سبحانه، لقد رأى فيه سؤاله المقلق، وكأنه كان يتمنى أن يقابل هذا الخالق قبل أن يخلق الإنسان، كي يحذره من فعلته ويمنعه من خلق هذا المفسد الذي ﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] أو على الأقل يعرف منه الحكمة من هذا الفعل الشنعاء في نظره .

ولعل جفري قد انتبه بحكم دافعه في البحث وشمولية رؤيته لهذا النص إلى سر تعليل الملائكة لاعتراضهم على هذا المخلوق بأنهم يقومون بواجب العبادة على أحسن وجه، فكأن وجوده مع ما سيحدثه

(١) «حتى الملائكة تسأل» ص(٤٦).

من الإفساد مستغنى عنه بوجود الملائكة التي تسبح وتقدس لله .

□ يقول: «وتزداد أهمية السؤال إذا ما أخذنا في اعتبارنا ممن ومن أين جاء هذا السؤال، وعندما نفكر في الملائكة فإننا نتخيل مخلوقات وديعة وطاهرة ومقدسة، وقد أذعنت لله بكامل الخضوع والبهجة، فهي تمثل النموذج الذي يجب أن نطمح للاحتذاء به» قال: «فالسؤال يقول: لماذا (يا رب) تريد أن تخلق هذا المخلوق كثير الزلل وواضح الفساد ما دام أن في مقدورك أن تخلقنا، وهكذا تردف الملائكة ونحن نسبح بحمدك ونمجّد قدسيّتك»^(١).

لقد وجد جفري لانج في هذا السؤال ضالته، ولذلك يقول بلسان كل الملحدين: «لم نكد ننهي جملة واحدة من القرآن حول قصة الإنسان إلا وقد واجهنا شكوانا الرئيسية (نحن الملحدين) وهذه الشكوى قد تم التعبير عنها بلسان الملائكة»^(٢).

□ ويستمر في التساؤل بلسان الإلحاد: «فلم يا رب تُخضع الجنس البشري إلى ألم دنيوي، لم لا تنقلنا إلى الجنة أو لم تضعنا هناك منذ البداية، لماذا كتبت علينا معشر البشر الصراع من أجل البقاء؟»^(٣).

وخلاصة الجواب عن هذا التساؤل الوجداني: أن الله ﷻ قد شاء أن يحدث في هذا الكون حدثا ليس له مثال سابق، حدث سيجعل الكون كله في حكم التابع لهذا المخلوق، الذي ستتولى الملائكة رعايته، وستتولى سائر المخلوقات في الأرض خدمته، وسيملكها جميعا بسلطة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، ولهذا كان إخبار

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ص (٤٧).

اللَّهُ للملائكة بهذا الخبر إعلاماً لهم بفضل الإنسان وعظم هذا الدور الذي سيقوم به على هذه الأرض التي خلقت من أجله، وتهيئاً لهم لخدمته بما سيقومون به من أعمال تبدأ من إحصاء حركاته و سكانته، إلى تدبير رزقه وأسباب عيشه .

✍️ ثالثاً: خليفة عن الله، أم عن خلقٍ سابقين؟

إن الاهتمام العظيم بهذا المخلوق والذي استدعى إعلام الملائكة بخلقه وإظهار فضيلته أمامهم من خلال إظهار مقدرته على التعلم وتعليمه الأسماء كلها وعرضها عليهم وتحديد بهم بأن ينبؤوا بأسماءها إن كانوا صادقين، كل ذلك يجعل هذا المخلوق متميزاً ويجعل خصائصه فريدة عن غيره من المخلوقات، ولذلك فإن الزعم بأنه خليفة عن خلق سابقين يعارض ما تقرر من فضل هذا الإنسان، ودوره الفريد على هذه الأرض.

إنه لو كان الأمر مجرد خلافة عن مخلوقات أخرى سبقت على هذه الأرض، لما كان لفضائله أي معنى، ولما كان لسجود الملائكة تلك الرمزية التي فضل بها آدم على غيره، وبما أننا نجزم أن آدم قد كان بدعاً من الخلائق، ونموذجاً فريداً في الكائنات، ومتميزاً بصفات لا يشركه فيها غيره، فإننا بالتالي نجزم بأنه لم يكن خليفة عن غيره من المخلوقات، والذي يجعل الجزم بهذا القول لازماً لكل ناظر ممحص، ما يلي :

○ أن الاستخلاف سيكون ذا قيمة لو عرف قيمة المستخلف عنه، وبما أنه لا وجود لمخلوق يوازي آدم، فلن يكون للإخبار بكونه خليفة أي تشريف، إذ شرف المستخلف مرتبط بشرف المستخلف عنه، وبما أننا لا نعلم صفة المستخلف عنه فلن يكون في الوصف بالخليفة أي تشريف .

○ أن كثيرا من المخلوقات قد خلفت غيرها في مجال عيشها، وبالتالي فليس استخلاف مخلوق عن مخلوق شيئا يستحق مزيدا من الاهتمام يؤدي إلى إعلام الملائكة .

○ أن غير آدم من المخلوقات هي تبع لآدم، ولا يعقل أن يكون المتبوع خليفة للتابع .

○ أنه لم يثبت وجود مخلوقات سابقة عن آدم أفسدت وسفكت الدماء .

هذا من جهة الاستخلاف في حد ذاته، أما حين نبحث عن ماهية هذا المستخلف عنه، فإننا نجد بعض المفسرين قد ذكروا أنهم الجن، وأنهم قد عاثوا في الأرض فسادا فأرسل الله الملائكة لقتالهم، وهذا من الإسرائيليات التي تسربت إلى كتب التفسير كما نبه على ذلك كثير من المفسرين، ومنهم صاحب «المنار»:

□ إذ يقول: «وأكثر ما قالوه فيه قد سرى إلى المسلمين من أساطير الفرس وخرافاتهم، ومنه أنه كان في الأرض قبل آدم خلق يسمون بالحن والبن، أو الطم والرم، والأكثر على أن الخلق الذين كانوا في الأرض قبل آدم مباشرة كانوا يسمون الجن، والقائلون منهم بالحن (بالمهملة) والبن قالوا: إنهم كانوا قبل الجن، وقالوا: إن هؤلاء عاثوا في الأرض فسادا، فأبادهم الله (كما تقدم آنفا) وقالوا: إن الله - تعالى - أرسل إليهم إبليس في جند من الملائكة فحارب الجن فدحرهم وفرقهم في الجزائر والبحار. وليس لهم في الإسلام سند يحتج به على هذه القصص»^(١).

ومما يؤكد عدم صحة هذا القول، أن الجن مخلوقون من نار بنص

(١) «تفسير المنار» (١/٢١٥).

القرآن قال تعالى: ﴿وَلَجَّأَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]؛ ولذلك فإن صفة سفك الدماء الواردة في الآية، لا يمكن أن تنطبق على الجن إلا بتأويل بعيد، إذ إنها مخلوقات لا جسم لها، وبالتالي فلا يمكن أن يتصور لها دمٌ يسفك أصلاً.

وأيضاً فإن جعل آدم خليفة عن الجن انتقاص من مكانة آدم وإنزال له إلى أدنى من مكانة الجن، ومعلوم أن الجن دون الإنس في المكانة على جهة العموم، فمنهم الرسل والأنبياء وأولوا العزم والصحابة وسيد الخلق صلوات ربي وسلامه عليه، وهم تبع للإنس في الرسالة وتبع لهم في سكنى الأرض، إلى غير ذلك من أوجه التفضيل.

فإذا ظهر ضعف القول بأن الإنسان خليفة عن الجن، فإن القول بأن آدم خليفة عن مخلوق سابق يسقط لعدم وجود مخلوقات أخرى يمكن أن تحل محل الجن في هذه الفرضية، وبالتالي يسقط هذا القول إجمالاً.

فيبقى عندئذ القول الذي قال به كثير من المفسرين وهو أن آدم خليفة عن الله في الأرض في أمر مخصوص، وهو إقامة حدوده وعمارة أرضه، وهو المعنى الذي جوزه الزمخشري وإن لم ينصره:

□ فقال: «ويجوز أن يريد: خليفة مني، لأنَّ آدم كان خليفة الله في أرضه وكذلك كل نبيٍّ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]»^(١).

ونجد توضيحاً لهذا المعنى وتفصيلاً لمضامينه عند البيضاوي:

□ إذ يقول: «والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه، والهاء فيه للمبالغة، والمراد به آدم عليه السلام لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل

(١) «الكشاف» (١/١٢٤).

نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم، لا حاجة به تعالى إلى من ينوبه، بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه، وتلقي أمره بغير وسيط، ولذلك لم يستنبئ ملكاً كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]، ألا ترى أن الأنبياء لما فاقت قوتهم، واشتعلت قريحتهم بحيث يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، أرسل إليهم الملائكة ومن كان منهم أعلى رتبة كلمه بلا واسطة، كما كلم موسى ﷺ في الميقات، ومحمداً ﷺ ليلة المعراج، ونظير ذلك في الطبيعة أن العظم لما عجز عن قبول الغذاء من اللحم لما بينهما من التباعد، جعل البارئ تعالى بحكمته بينهما الغضروف المناسب لهما ليأخذ من هذا ويعطي ذلك»^(١).

ونجد أن القنوجي قد انتصر لهذا ورجحه :

□ فقال: «والصحيح أنه إنما سمي خليفة لأنه خليفة الله في أرضه لإقامة حدوده وتنفيذ قضاياه»^(٢).

□ قال صاحب تفسير «المنار» - بعد أن فند حكاية الجن وإفسادهم في الأرض -: «وذهب الآخرون إلى أن المراد: إني جاعل في الأرض خليفة عني؛ ولهذا شاع أن الإنسان خليفة الله في أرضه. وقال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، والظاهر - والله أعلم - أن المراد بالخليفة آدم ومجموع ذريته، ولكن ما معنى هذه الخلافة، وما المراد من هذا الاستخلاف، هل هو استخلاف بعض الإنسان على بعض، أم استخلاف البعض على غيره؟.

جرت سنة الله في خلقه بأن تعلم أحكامه للناس وتنفذ فيهم على السنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه في ذلك، وكما أن

(١) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (١/٦٨).

(٢) «أنوار البيان في مقاصد القرآن» - عند الآية السابقة.

الإنسان أظهر أحكام الله وسننه الوضعية (أي الشرعية؛ لأن الشرع وضع إلهي) كذلك أظهر حكمه وسننه الخلقية الطبيعية، فيصح أن يكون معنى الخلافة عاما في كل ما ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات»^(١).

وقد مال بعض المفسرين إلى الجمع بين القولين، أي أنه خليفة عن الله وأن البشر خلائف يخلف بعضهم بعضا.

□ قال الشنقيطي: «ويمكن الجواب عن هذا بأن المراد بالخليفة آدم، وأن الله أعلم الملائكة أنه يكون من ذريته من يفعل ذلك الفساد، وسفك الدماء. فقالوا ما قالوا، وأن المراد بخلافة آدم الخلافة الشرعية، وبخلافة ذريته أعم من ذلك، وهو أنهم يذهب منهم قرن ويخلفه قرن آخر»^(٢).

لكن الذي يتسق مع مقاصد الاستخلاف أن هذه الخلافة هي نيابة عن الله وتكليف بإقامة شريعته وتمكينها في الأرض لتحقيق الإرادة الشرعية المقصودة من أصل خلقة الإنسان، وهذا ما اختاره الإمام الرازي:

□ حيث قال: «إنما سماه الله خليفة؛ لأنه يخلف الله في الحكم بين المكلفين من خلقه وهو المروي عن ابن مسعود، وابن عباس، والسدي، وهذا الرأي متأكد بقوله: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]. أما الذين قالوا: المراد ولد آدم، فقالوا: إنما سماهم خليفة؛ لأنهم يخلف بعضهم بعضا، وهو قول الحسن ويؤكداه قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، والخليفة اسم

(١) «تفسير المنار» (٢١٦/١).

(٢) «أضواء البيان» (٢١/١).

يصلح للواحد والجمع، كما يصلح للذكر والأنثى، وقرئ خليفة بالقاف»^(١).

□ وقال ابن عطية: «قال ابن مسعود: «إنما معناه خليفة مني في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري»؛ يعني بذلك آدم ﷺ ومن قام مقامه بعده من ذريته»^(٢).

إذن: آدم خلق خليفة عن الله في أرضه، وكان بذلك أول من يستحق هذه المكانة ولا شيء يثبت وجود خليفة قبله صالح لأن يكون آدم خليفة عنه، إلا أن الاعتراض الذي ربما جعل بعض المفسرين يميلون إلى وجود خلق قبل آدم عمر الأرض وأفسد فيها، هو التالي: إذا كان آدم أول خليفة لله في أرضه، فما وجه استنكار الملائكة، وكيف لهم أن يصفوه بالإفساد وسفك الدماء، إلا إن كان لديهم قياس سابق يقيسون عليه، وبالتالي فقد حكموا عليه لما رأوا من سفك وإفساد على يد من عمر الأرض قبله، وإلا فما الذي جعل الملائكة يستنكرون؟ وهو سؤالنا التالي.

رابعاً: كيف عرفت الملائكة أن آدم وذريته يفسدون؟

يبين القرآن أن الملائكة لا يعلمون إلا ما علمهم الله ﷻ ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]؛ ولذلك فإن السؤال الذي استشكله المفسرون هو حول مصدر معرفة الملائكة بذلك، والجواب هو في الاحتمالات التالية:

بالإخبار: إما أن الله علمهم ذلك، أي أنه عرفهم شيئاً من أحوال هذا الإنسان في حياته وما سيقترف في هذه الأرض من إفساد وهذا

(١) «تفسير الرازي» (٣٨٩/٢).

(٢) «الحرر الوجيز» (١١٧/١).

القول قال به بعض المفسرين .

بالقياس: وإما أنهم عرفوا ذلك على وجه القياس بالمخلوقات السابقة على وجود الإنسان في هذه الأرض، ثم اختلف القائلون بهذا القول في تحديد ماهية هذه المخلوقات فمنهم من قال بأهم الجن، ومنهم من قال بأنهم مخلوقات أخرى .

بالاستنتاج: وإما أنهم عرفوا ذلك بما استنتجوه من طبيعة هذا المنصب الذي يستدعي الصراع والتنازع .

□ جاء في «نظم الدرر» للبقاعي: «وكانهم لما رأوا صورة آدم تفرسوا فيها ذلك لو سألوا عن منافع أعضائه وما أودع فيها من القوى والمعاني أخبرهم تعالى بما تفرسوا منه ذلك» .

□ ثم قال «والأظهر ما ذكرته أنهم إنما قالوا ذلك تفرسا بحكم ما ظهر لهم من صورته ونحو ذلك من إعلامهم بأنه يجمع فيه بين الشهوة والعقل، ومن المعلوم أن الشهوة حاملة على الفساد، وعلم سبحانه ما خفي عنه من أنه يوفق من أراد منهم للعمل بمقتضى العقل مع قيام منازع الشهوة والهوى، فيأتي غاية الكمال التي هي فوق درجة العامل بمقتضى العقل من غير منازع له فيظهر تمام القدرة والله أعلم»^(١) .

□ قال الرازي: «وسابعا: أن علمهم يفسدون ويسفكون الدماء، إما أن يكون قد حصل بالوحي إليهم في ذلك أو قالوه استنباطا، والأول بعيد؛ لأنه إذا أوحى الله تعالى ذلك إليهم لم يكن لإعادة ذلك الكلام فائدة، فثبت أنهم قالوه عن الاستنباط والظن، والقدح في الغير على سبيل الظن غير جائز»^(٢) .

(١) «نظم الدرر» (١/٨٨) .

(٢) «تفسير الرازي» (٢/٣٩٠) .

وقبل أن نرجح بين الأقوال يجب أن نعترف بأن هذه المسألة خفية الدلالة ولا يمكن الجزم فيها بشيء، إلا أن الحكمة التي تتضح من سؤالهم مرتبطة تمام الارتباط بفهم نظرية الوجود البشري على هذه الأرض ومن خلالها نفهم ضرورة وجود الشر لإقامة نظام الابتلاء، وأنه لولا الشر والإفساد وسفك الدماء ما تمت الصورة الكاملة التي أقامها الله ﷻ لاختبار الإنسان ومطالبتة بإثبات خيريته واستحقاقه لاصطفاء الله ونيل مرضاته ورحمته.

أي مهما قلنا عن مصدر معرفتهم فإنه ليس ذا أهمية مؤثرة في تصورنا لمعضلة وجود الشر والتي طرحها الملائكة كاستشكال جوهري حول وجود الإنسان، ليكونوا بذلك أول من طرح إشكالية وجود الشر في لحظة خلق الإنسان، حيث طرحوها على خالق الإنسان بشكل مباشر، وكأنهم نابوا بذلك عن كل من سيطرح هذا السؤال، ليقف بدوره في صف الملائكة وينتظر هذا الجواب الإلهي العجيب والذي بدأه بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وبعد أن بين لهم خاصية هذا الإنسان وقدرته على التعلم الذي هو أساس الاختيار قال ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٣٣]، وكأن هذه الإشكالية هي لازم من لوازم إيجاد خليفة له ميزة عن سائر المخلوقات وله تأثير فيها وسيطرة عليها، أي أن بإمكانه استخدام قوى الطبيعة وموارد العلوم ومكامن الطاقات المتنوعة التي أوجدها الله في هذا العالم، يستطيع أن يطوعها بقدرته على التعلم ليسخرها في مقاصد الشر والإفساد، لكنه في نفس الوقت يملك القدرة الكاملة على استخدامها في الإصلاح وإعمار الأرض ليرتقي ويكون خليفة عن الله في أرضه بما يحب.

فهما كان مصدر سؤالهم إلا أنه دليل على أهمية هذا المخلوق، الذي يستطيع أن يصلح غاية الإصلاح بقدراته التي مصدرها تعلمه،

ويستطيع أن يفسد غاية الإفساد بنفس هذه الخصائص .

فالراجح الذي تطمئن إليه النفس أنهم قالوا ذلك بتعليم الله لهم خصائص ما يمكن أن يفعله الخليفة وما سيسخر له من قدرات، فاستنتجوا منها ما ينشأ عن تلك القوى من تعارض، وبالتالي تنازع وإفساد في الأرض بما هو مناقض للغاية التي خلق لها . والله أعلم .

✍ **خامساً: ما وجه تعليلهم للاعتراض بأنهم يسبحون بحمد الله ويقدمون؟**

أما وجه ذكرهم لعبادتهم فهي من لوازم إثبات الحكمة من خلق آدم، فهو ذلك النوع الذي يعبد عبادة مخصوصة، دافعها العقل المنازع بالشهوة، والحب المدفوع بالإيمان بالغيب، بخلاف عبادة الملائكة التي هي جيلة جبلوا عليها، ومشاهد عاينوا أحوالها، وبين الأمرين بون كبير .

□ قال ابن كثير: «وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي نصلي لك كما سيأتي . أي ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟» (١) .

أي فلو كان المقصود من خلق الخليفة أن تخلق من يعبد ويسبح، فنحن نقوم بذلك خير قيام، فكأن المقصود من إثبات سؤالهم هو الإشارة إلى أن مهمة آدم هي أكبر من التسبيح والتقديس الذي تقوم به الملائكة خير قيام، بل هي مهمة الخلافة التي جعلها الله علامة على هذا المخلوق، وصفة مميزة له، فلم يذكره غيرها ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] .

فاعترضهم إشارة واضحة إلى ما ينبغي أن يقوم به هذا الخليفة،

(١) «تفسير ابن كثير» (١/٢١٦) .

ولذلك أثبتت الشريعة فضل العالم على العابد، وورد في ذلك الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ: «فضل العالم العابد كفضلي على أدناكم»^(١).

سادساً: المعنى الراجح للخليفة:

إذن الذي يترجح أن الاستخلاف هو: تكليف مخصوص للقيام بمهام مخصوصة أعلاها الرسالة وأدناها الأمر بالمعروف والنهي والمنكر ومن مظاهرها الإمامة والإمارة والقوامة، وهي سبب تكريم الإنسان على سائر المخلوقات، ولأجلها منح العقل والإرادة والشهوة، وعلى أساسها يترقى في مراقبي الإنسانية أو ينحدر إلى درك الحيوانية.

وبعد أن اتضح معنى الخليفة لا بد أن نعود إلى الوراء قليلاً لنشاهد القصة من الأفق الدلالي الواسع لنذكر إلى أين تأخذنا معانيها وكيف تخدمنا في رسم هذه العلاقة الأزلية بين الإنسان في صورتيه المتباينتين الذكورة والأنوثة واختلافهما الذي هو كتباين الليل والنهار، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۝ (١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۝ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝ (٤)﴾ [الليل].

□ قال ابن كثير في «تفسيره»: «ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان القسم عليه أيضاً متضاداً؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ أي: أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضاً ومتخالفة، فمن فاعل خيراً ومن فاعل شراً»^(٢).



(١) حسن: رواه الترمذي (٢٦٨٥)، والطبراني في «الكبير» (٨/٢٧٨)، وابن شاهين في «فضائل الأعمال» (٢١٦)، وحسنه الشيخ الألباني في «إصلاح المساجد» (١٢٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤١٧/٨).

قصة أم تعليل؟

قصة آدم هي قصة الخلق، أي القصة التي توضح بداية الموضوع من أوله، والتي تركز على الهدف من الخلق وكيف بدأ الصراع بين آدم وإبليس. يعني أن قصة آدم هي التي تصور لنا العلة من هذه الحياة الدنيا والغاية من هذه الخليفة، لهذا كررت في القرآن الكريم لأهميتها في فهم الشريعة وفي فهم الأدوار المطلوبة من آدم الخليفة ومن سكنه حواء.

إن المغزى من هذه القصة هو أن يرتبط آدم بالعلة التي خلق لها فلا ينساها ولا يطغى بها، وترتبط حواء بالعلة التي خلقت لها فلا تنشغل عنها ولا تقدم عليها غيرها، وبالتالي فإن أي ابتعاد من هذين المخلوقين عن غايته هو ضلال، أي تضييع للطريق التي توصله إلى الهدف الذي كُلف بتحقيقه في هذه الحياة، وهو الهدف المنسجم مع طبيعة الاختبار الذي سيخوضه في الحياة الدنيا التي هي في الأصل مجرد اختبار.

فإذن هي ليست قصة، هي تعليل للخلق، ووضع لآدم وحواء على المنهاج القويم الذي ستنزل به الشرائع وترسم به المعالم وتقام به المحجة البيضاء. وقد أشار الطاهر بن عاشور إلى مقصد هذه القصة:

□ فقال: «وقد أريد من هذه القصة إظهار مزية نوع الإنسان وأن الله يخص أجناس مخلوقاته وأنواعها بما اقتضته حكمته من الخصائص والمزايا لئلا يخلو شيء منها عن فائدة من وجوده في هذا العالم وإظهار

فضيلة المعرفة، وبيان أن العالم حقيق بتعظيم من حوله إياه، وإظهار ما للنفوس الشريرة الشيطانية من الخبث والفساد، وبيان أن الاعتراف بالحق من خصال الفضائل الملائكية، وأن الفساد والحسد والكبر من مذام ذوي العقول»^(١).

□ يقول سيد قطب: «بعد ذلك تبدأ قصة البشرية بأحداثها المثيرة تبدأ بإعلان ميلاد الإنسان في احتفال مهيب، في رحاب الملأ الأعلى يعلنه الملك العزيز الجليل العظيم؛ زيادة في الحفاوة والتكريم، وتحشد له الملائكة - وفي زمريهم وإن لم يكن منهم إبليس - وتشهده السماوات والأرض؛ وما خلق الله من شيء... إنه أمر هائل وحدث عظيم في تاريخ هذا الوجود»^(٢).



(١) «التحرير والتنوير» (١/٤٢١).

(٢) «في ظلال القرآن» (٣/١٢٦٤).

مشهد التنصيب

نعود الآن إلى سياق القصة لنجد أنها تبدأ من هذا الخبر الذي يعلنه خالق السماوات والأرض في مجتمع السماء والذي يضم الملائكة وإبليس الذي ألحق بالملائكة لفضله وعبادته، وللحكمة التي أراد الله ﷻ، فيقابل هذا الإعلان بذلك الاستغراب الذي خرج مخرج الاعتراض: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، إلى آخر القصة، ثم يخلق الله الخليفة، ويصنعه من طين لازب، ثم تأتي الساعة الموعودة وينفخ فيه الروح، فيقوم الخليفة ويسجد له الملائكة.

سجدوا تعظيماً له بأمر الله تعالى، وسجدوا إعلاناً باعترافهم بمشروعه الكبير مشروع الخليفة، فكان المشهد تنصيباً لهذا المخلوق على رأس منصبه الذي خلق له.

ولهذا ناسب هذا التنصيب سجود التعظيم كي يدل على مكانة المسجود له وعلى عظم منصبه الذي تولاه، فسجود الملائكة تعظيم للمنصب وتعظيم للمنصب فيه.

□ يقول سيد قطب: «إنه التكريم في أعلى صورته، لهذا المخلوق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولكنه وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة. لقد وهب سر المعرفة، كما وهب سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق. إن ازدواج طبيعته، وقدرته على تحكيم إرادته

في شق طريقه، واضطلعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة،
إن هذا كله بعض أسرار تكريمه»^(١).

كما تم من خلال تنصيب آدم خليفة إدراج الملائكة في سلك خدمة
هذا الخليفة، فهم الذين سيكلفون بتسجيل أجله وعمله وشقي أو
سعيد، وهم المكلفون بكلاءته بالليل والنهار، وتسجيل عمله، وسوق
رزقه، وهم المكلفون بتدوين أعماله ورفعها، يتعاقبون عليه بالليل
وبالنهار، إلى أن يحين أجله فيأتيه ملائكة يقبضون روحه، ثم يسألونه
في قبره، ويحشرونه إلى يوم محشره، فهم في خدمته إلى أن يؤول
إلى مصيره.

بل هم المكلفون بأسباب عيشه، فهم المكلفون بالسحاب والرياح
والجبال والمياه والنبات، وبكل ما يحتاجه الإنسان ليعيش حياته على
هذه الأرض.



(١) «في ظلال القرآن» (١/٥٧).

مشهد الاعتراض

يسجد الملائكة كلهم أجمعون، ويعبر القرآن بهذا التعبير الذي يدل على انقياد كل الملائكة دون استثناء ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣] ثم يأتي الاعتراض من إبليس الذي عز في نفسه أن ينال آدم هذا الفضل ويخص به دونه ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وفي هذا إشارة واضحة إلا أن الخلافة في الإنس لا في الجن، وفيه دليل إلى أن الخلافة ليست مرتبطة بالوجود على هذه الأرض ولا بمطلق الابتلاء والأمر والنهي، فالجن يشتركون مع الإنس في وجودهم على هذه الأرض وفي تكليفهم بالعبادة والشرعية، ومع ذلك فالخلافة ليست فيهم، ولم يعطوا من القدرة ما أعطيه الإنس من إعمار الأرض والتحكم في خيراتها، بل حتى قوتهم كان من بقايا ما يأكل الإنسان، ولهذا نهى رسول الله ﷺ عن الاستجمار بالعظام لأنها من أقوات الجن (١).

ولقد كان مشهد الاعتراض وتكراره في القصة بأساليب مختلفة إشارة واضحة متكررة إلى أن إبليس هو عدو آدم اللدود، وأن هذه العداوة متأصلة لا يمكن أن تزول، فإبليس قد ضيع كل عبادته بسبب آدم، وطرد من الجنة بسببه، واستحق النار بسببه، فلا يمكن لعداوته

(١) رواه مسلم (٤٥٠).

أن ترتفع، لذا فإن من أهم غايات تكرار مشهد الاعتراض التأكيد على العداوة، واليأس من المسالمة، والاستعداد بأخذ الحيطة، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَتَّادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧].

لقد كان هذا الاعتراض الناشئ عن الحسد، أكبر دليل على أن الخلافة المقصودة ليس مجرد التكاثر والتخالف، بل هو مقام استرعى الانتباه وأثار مكامن الحسد، وفيه تأسيس لمبدئ التفضيل الذي هو أساس الاصطفاء، فالله اصطفى الإنس على الجن، واصطفى آدم على إبليس، ولهذا فإن أول معترض على التفضيل إبليس، وأول خطأ بنيت عليه المعركة بين إبليس وآدم الاعتراض على اختيار الله ﷻ ما شاء لمن شاء على وفق مبدأ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

لقد اعترض إبليس على آدم من جهة مادة خلقه، فهل ستعترض المرأة على آدم من جهة صفات خلقه؟



مشهد التعليل

لقد أراد الخالق إظهار مكانة هذا المخلوق - بعد أن سجد الملائكة امتثالاً - لتطيب نفوسهم بمعرفة سبب هذا التفضيل وعلّة هذا السجود، فكان أن أظهر الله خاصية آدم وسبب تفضيله فعلمه الأسماء ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، ثم عرض ميزاته التي فضله بها على الملائكة ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]، فيعجز الملائكة ويأمر الله آدم ليظهر فضل العلم الذي أعطاه الله ﴿قَالَ يَتَكَاذِبُ أُنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، ثم يقر الملائكة بفضله ويعترفون بحكمة الله ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

لم يكن هذا المشهد مجرد جواب على السؤال، بل تعليلاً لسر خلق الإنسان، يقول جفري لانج: «من الواضح أن هذه الآية تخاطب سؤال الملائكة، فمقدرات آدم ﷺ على التعلم واكتساب المعرفة وتلقي العلم هي محور هذه الاستجابة الأولية. وأما الآية التالية فتظهر دونية الملائكة في هذا المجال. لقد تم التركيز بشكل خاص على قدرة آدم ﷺ في تسمية الأشياء والتمثيل بالرموز الفعلية لـ «كل الأشياء» التي تدخل عقله المدرك، بما في ذلك: كل أفكاره ومخاوفه وآماله، باختصار كل ما يستطيع إدراكه واستيعابه، إن هذا يسمح

للإنسان أن يتواصل بخبرته ومعرفته على مستوى عال نسبياً مقارنة بالمخلوقات الأخرى من حوله ويعطي العلم الإنساني كله نوعية تراكمية متفوقة . وفي أماكن متعددة من القرآن نجد أن هذه الموهبة هي إحدى النعم الكبرى التي فضل الله بها الإنسان على سائر مخلوقاته : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة] ، ففي هذه الآية تدافع الملائكة عن عدم مقدرتها لأداء مهمة كهذه ، حيث إن ذلك يتطلب ، وكما تعلن بوضوح ، معرفة وحكمة خارجة عن نطاق إدراكها ، وتؤكد الملائكة أن تنفيذ تلك المهمة هو بالطبع أمر في غاية السهولة لدى الله مادام أن معرفته وحكمته هي الأسمى ، وأن مثل هذا الأمر لا يمكن أن يتوقع منها . وفي النص التالي نكتشف أن آدم ﷺ يمتلك مستوى الذكاء اللازم لأداء المهمة ، ومن هنا ، وبرغم أن معرفته وحكمته هي لا شك أدنى من معرفة وحكمة الله فإنها أكبر من معرفة وحكمة الملائكة» (١) .



(١) «حتى الملائكة تسأل» ص (٤٧ ، ٤٨) .



مشهد التكريم



يدخل الخليفة إلى الجنة بعد أن استقرت هذه الحقائق الجديدة في الملكوت :

- ١ - عين الله خليفة بعد أن لم يكن ثمة خليفة
- ٢ - تم تنصيب الخليفة في مشهد مهيب
- ٣ - تم توضيح سبب تفضيل الخليفة بتعليمه الأسماء
- ٤ - أظهر آدم استحقاقه للخلافة عبر إجابته عن كل ما سأل عنه الملائكة
- ٥ - أعلن إبليس اعتراضه على التفضيل ونصب نفسه عدوا للخليفة .

﴿ أين حواء؟ ﴾

كل هذه المشاهد لم تحضرها حواء ولم تستدع لها، فلو قدرنا سؤالاً يوجه للملائكة في تلك اللحظة من هو الخليفة الذي أخبركم الله عنه، لقالوا: آدم، ولو سُئلوا من الذي علمه الله الأسماء وحاججكم بما علمه، لقالوا: آدم، ولو سُئلوا في تلك اللحظة عن حواء، لما كان لديهم عنها أي علم أو تصور، ولما خطر ببالهم أن ثمة شخصاً آخر، فبخلق آدم تحقق الجواب عن الوعد الذي أخبر الله به الملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ولذلك قال المفسرون إن الخليفة هو آدم :

□ جاء في «تفسير الجلالين»: «يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها وهو آدم»^(١).

□ وعند البيضاوي: «والمراد به آدم عليه السلام لأنه كان خليفة الله في أرضه»^(٢).

□ وقال ابن عطية: «قال ابن مسعود: «إنما معناه خليفة مني في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري» يعني بذلك آدم عليه السلام ومن قام مقامه بعده من ذريته»^(٣).

□ وقال الزمخشري: «ويجوز أن يريد: خليفة مني، لأن آدم كان خليفة الله في أرضه وكذلك كل نبي: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾»^(٤) [ص: ٢٦].

من هنا فقد خلق آدم مهيباً للخلافة نفسياً وبدنياً، وظهرت فيه ميزات الخلافة كما ستظهر فيه عيوبها ومطامعها منذ اليوم الأول حين لم يكتف بكل ما في الجنة وطلبت نفسه المتطلعة للخلافة خلداً وملكاً لا يبلى، فالحادثة التي حصلت ليست مجرد ذنب وقع فيه آدم، بقدر ما هو تصوير للدوافع التي ستدفع آدم إلى العصيان وذريته إلى الطغيان.

هذا الأمر قد أدركه إبليس منذ البداية، فما الذي يمكن أن يغري خليفة أكثر من الملك والخلد، ولذلك قال له: ﴿هَلْ أَذُكَّ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى﴾^(١٢٠) [طه]، وفي آية أخرى: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ

(١) «تفسير الجلالين» (٨/١).

(٢) «تفسير البيضاوي» (٦٨/١).

(٣) «المحرر الوجيز» (١١٧/١).

(٤) «تفسير الزمخشري» (١٢٤/١).

الشَّجَرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٠﴾ [الأعراف]، وقرأ ابن عباس ويحيى ابن كثير والضحاك ملكين بالكسر وهو الذي يوافق المعنى الوارد في الآية الأخرى.

□ يقول سيد قطب - في إشارةٍ إلى هذا المعنى اللطيف -: «لقد لمس في نفسه الموضع الحساس، فالعمر البشري محدود، والقوة البشرية محدودة. من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الطويل، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان، وآدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر، لأمر مقدور وحكمة مخبوءة ومن ثم نسي العهد، وأقدم على المحذور»^(١).

لقد كان دخوله الجنة تكريماً له، لكنه كان تكريماً ينقصه شيء ما، شيء لم يستطع آدم أن يدرك كنهه، فهو لم يأنس بكل ما حوله من أنهار وفواكه وطعام وجمال، لقد كان آدم يحتاج إلى شيء آخر، ليتم له هذا التكريم.



(١) «في ظلال القرآن» (٢٣٥٤/٤).

لماذا لم تسجد الملائكة لحواء؟

سجود الملائكة لآدم هو أعظم تشريف ضمن التشريفات التي خص الله بها هذا الخليفة، حيث خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وجعله خليفة له في أرضه، إلا أن هذا التشريف له خاصية أخرى، إذ هو مرتبط بالمنصب الذي كلف به لا بذات خلقه وطبيعة تكوينه، فالله ﷻ أخبر الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة، أي أن هذا الوصف هو الذي استحق به آدم التكريم، فكرم آدم لدوره الذي سيقوم به لا لمجرد كونه إنسانا منحه الله عينين ولسانا وشفيتين، ولذلك تنقلب حاله إلى أسفل سافلين إذا لم يؤد دور الاستخلاف على الوجه الذي خلق له ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿التين﴾.

من هنا يمكن أن نقول إن سجود الملائكة لآدم إنما اختص به لأنه خليفة، وبالتالي فإن عدم سجود الملائكة لحواء لانتفاء هذا الوصف بالشكل الكامل عنها، فهي ليست الخليفة، بل هي التي سيسكن إليها الخليفة ﴿وَجَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، ولذلك فإن استبعادها عن هذا المقام هو استبعاد إعفاء لا استبعاد إغفال، فاستبعدت عن المجال الذي لن تكلف فيه ولن تنشغل به، وظهرت في المجال الذي ستميز فيه بدورها المكمل لهذا الاستخلاف.

أول ظهور لحواء ﷺ في المشهد

بعد أن ظهر الخليفة وظهرت مكانته للملائكة، توجه الخالق الكريم بالخطاب إلى الخليفة: ﴿وَقُلْنَا يٰٓآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة]، فأعطي آدم الجنة وأمر أن يسكنها أمر تشريف وتكريم: اسكن أنت، ثم تبعته زوجته في هذا الأمر: وزوجك، لكن حين بدأ التكليف والامتحان اشتركت حواء مع آدم في الخطاب: ولا تقربا فتكونا فأزلهما فأخرجهما مما كانا فيه .

نعم، ساوته في التكليف واختلقت معه في الرسالة، لقد اشتركت معه في الخطاب التكليفي إلا أنه لما جاءت مرحلة التشريع وصدر الخطاب التشريعي الذي يعلم الإنسان التوبة ومراحلها وكلماتها تحول الخطاب من التثنية إلى الإفراد ونص على آدم: ﴿فَلَقَىٰٓ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَثَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة]، فأدم هو الذي تلقى الكلمات لكنه علمها حواء، وجاء إعلان التوبة منهما معاً: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف].

الوحي سيكون لآدم وهو الذي سيكلف بتعليم حواء، هكذا منذ البداية، وهكذا كان الأنبياء والرسل رجالاً دائماً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٠٩]، لتظهر بذلك أشرف فضائل آدم، أنه سيتلقى الوحي من الله، وهو شرف لم تحظ به حواء، وفضيلة لم

تشاركه فيها، وإن شاركته في شرف العمل بمقتضاها.

لم يحك لنا القرآن عن خلق حواء، ولم يخبرنا عن الوقت الذي ظهرت فيه، لكنها ستظهر فجأة لحظة دخول آدم إلى الجنة، فالجنة لا تحلو لآدم إلا بحواء.

إن عدم إشارة القرآن إلى حواء وخلقها لا يدل على إهمال دورها كمكمل لدور الخليفة في الأرض، وإنما يدل على أن إغفال ذكرها لعدم تعلقه بالقضية الأساسية: الخلافة وتوابعها وما ينتظر آدم من التحديات في صراعه من أجل القيام بهذه المهمة التي خلق لها، لذلك أعرضت آيات بدء الخلق عن ذكر حواء، لكنها وضحت دورها وأكدت عليه في آيات أخرى، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]؛ فالعلة من خلق آدم: أن يكون خليفة، والعلة من خلق حواء: أن تكون سكنا للخليفة.

□ قال الزمخشري: «﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر، لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس، وإذا كانت بعضا منه كان السكون والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه. وقال: ﴿لِيَسْكُنَ﴾ فذكر بعد ما أنث في قوله: ﴿وَاحِدَةٍ﴾: ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، ذهابا إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم. ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها، فكان التذكير أحسن طباقا للمعنى» انتهى^(١).



(١) «تفسير الزمخشري» (١٨٦/٢).



من الاستخلاف التأسيسي إلى الاستخلاف التكميلي



حين ننظر إلى الوظيفة التي سيقوم بها الإنسان على وجه الأرض، نرى هذا الاستخلاف في مجالاته الدينية والعمرانية والاجتماعية لا يتم إلا باشتراكهما معا، وهذا ما قد يطرح تساؤلا منطقيا: هل آدم وحده هو الخليفة؟ وهل الاستخلاف خاص بآدم؟

حين يرسل الملك بعثة من أجل مهمة عظيمة كفتح بلاد مثلا، فإن اشتراك الجميع في هذه البعثة، وتحقيقهم للهدف العام الذي من أجله خرجت، لا يمنع تباين أدوار كل فرد داخل البعثة، كما لا يمنع من تتويج أمير البعثة على أنه هو صاحب الإنجاز، وإن كان دوره لا ينفصل عن أدوار سائر أعضاء الجيش، فلولا السائس الذي يسوس الخيل ما استطاع القائد أن يشن غارته على متن فرس قوية نشيطة، وهكذا يصبح دور السائس هنا مهما لدرجة أنه هو السبب المباشر في تحقيق النصر.

لذلك وجب التمييز بين الاستخلافين، الاستخلاف التأسيسي والاستخلاف التكميلي.

فالاستخلاف التأسيسي الذي كلف به آدم لا يكون دون الاستخلاف التكميلي الذي كلفت به حواء، والذي مجاله السكن بكل أبعاده النفسية والمادية والاجتماعية، وبينما يدور الاستخلاف التأسيسي حول الأشياء

يدور الاستخلاف التكميلي حول الإنسان، من هنا نرى الأنبياء كبناء حضارة لا ناقلي شرائع فقط، ونرى النساء كبناء لهذا الإنسان الذي هو صانع الحضارة.

إن هذا التكامل لا بد فيه من التباين، فلو اختلطت الأدوار لفسدت المنظومة العجيبة التي نجدها في فكرة الموجب والسالب التي هي أساس دورة قوى الحياة في هذه الأرض.

إننا حين نجعل آدم خليفة فلا اتصال مهمته بأدوار تأسيسية مرتبطة تمام الارتباط بالمعنى الأصلي لمعاني الاستخلاف الذي يبدأ بتكليفه بمهمة الرسالة، وما يليها من إقامة الدين وتأسيس الدول وإدارة عجلة الاقتصاد والدفاع عن ذلك الاقتصاد وتلك الدول وذلك الدين، بينما نجد حواء في صراع آخر من أجل تحقيق معنى السكن الذي يرتبط بدور تكميلي لمهام هذا الخليفة والذي تجلّى في سكون آدم وهو في الجنة لحواء، وهذا ما يمكن أن يفسر التبعية الطبيعية بين الأنوثة والذكورة، والذي نلمحه في كل المخلوقات.

فدور آدم استخلاف مباشر، ودور حواء استخلاف مكمل، دوره خارجي ودورها داخلي، دوره مرتبط بالأشياء، ودورها مرتبط بالإنسان، دوره خشن ودورها ناعم، دوره القوة ودورها اللين، وهكذا يصبح معنى الزوج، معنى شاملاً لشيئين رجل وامرأة، يشكّلان شيئاً واحداً له وجهان، وجه نحو الشمس ووجه نحو الظل، وجه للمادة ووجه للإنسان، وجه للحماية ووجه للرعاية، وهذا هو سر الذكورة والأنوثة.





إغفال أم إعفاء؟



إذن هل تغيب حواء كان عن إغفال أم إعفاء؟

أما الإغفال فلا يتصور في حق الله ولا في حق كتابه الذي جاء ليبين لنا ويوضح ويشرح، فلو افترضنا أن حواء موجودة إلى جنب آدم لحظة التنصيب وسجود الملائكة، لما أغفل القرآن ذكر ذلك، لكن الذي حصل هو إعفاء لحواء عن حضور هذه المشاهد كلها، فهو إبعاد تخفيف، لكي نفهم نحن أن حواء ليس مراداً لها أن تخوض معركة الخلافة وإثبات الأحقية بها، بل هي مخبأة لدور آخر يختلف عن دور الخليفة لكن لا يقل أهمية عنه، بل لا وجود للخليفة بدون ذلك الدور، وهو سر معادلة الاستقرار الأسري، رجل من أقصى المدينة يسعى في حركة دؤوبة ليعود إلى سكنه ويجد الزوجة التي تحفظه وتحفظ ماله وأولاده فيسكن إليها، فلولا سكنه ما سمي بيته مسكناً، أي مكاناً للسكون، سكون في مقابل الحركة، وهذا ما نسميه التخادم التكاملي، إذ أننا أمام دائرتين من دوائر التكليف، دائرة الخليفة، ودائرة سكن الخليفة.

فما هي طبيعة دور الخليفة؟ وفيما تختلف المرأة عن الرجل في ذلك؟



الفصل الثاني

آدم الخليفة

مؤهلات عادلة من خالق عادل حكيم

حين طالب الخالق الحكيم آدم بخلافة الأرض وما تتطلبه هذه الخلافة من إصلاح واسع يبدأ بالإعمار ويمر عبر التدافع لردع الظلم وبناء الحضارة، فلقد زوده بمقومات تجعله ممكناً من هذه المهمة على اختلاف أدواره فيها، من البناء إلى القيادة إلى السفر إلى الجهاد والقتال، ولذا فإن استعداد آدم للخلافة يتجلى في أمور كثيرة:

١ - البنية الجسدية التي فضل بها على حواء، والتي تؤهله لجوانب مهمة من جوانب الاستخلاف كأعمال الإنشاءات وتحمل الأجواء القاهرة والقدرة على المدافعة والقتال.

٢ - القوة العقلية التي تؤهله لاتخاذ القرارات الصارمة والتغلب على معوقات العاطفة التي تشوش على حواء قرارها في المواقف الصارمة، وتجعلها متغيرة المزاج متأثرة الرأي.

٣ - رغبته الجامحة في التملك وطموحه الدافع نحو البناء والازدياد في الأراضي والمزارع ومظاهر الترف مما يفوق حاجته إذ هي الطاقة التي تحركه نحو الإعمار والذي هو صورة من صور الاستخلاف، بخلاف حواء التي تتجه رغبته نحو التجميل والمباهاة والكماليات وتنفق كثيراً من أموالها في ذلك.

٤ - الاستقرار الهرموني والتفرغ من شواغل الحمل والحيض وغير ذلك مما خصت به حواء.

٥ - ارتفاع معدل التستوستيرون أكثر من المرأة، وهو الهرمون المسؤول عن كثير من سلوكيات التنافس والقيادة والإصرار مما يجعله أكثر استعدادا للقيادة والمسؤولية .

٦ - حجم العقل الإضافي حيث ثبت أن عقل الرجل يزيد في حجمه عن عقل المرأة .

٧ - تفرغه النفسي لمهام إعمار الأرض، بخلاف حواء التي يبقى قلبها معلقا بأطفالها متى ما ابتعدت عنهم .

إلى غير ذلك من الفروق الفسيولوجية والنفسية والتي أثبتتها العلم الحديث والتي ترتبط بمفهوم الاستخلاف أي أنها المبرر لهذا التفاضل بين المرأة والرجل في طبيعة كل منهما وفي طريقة تفكيره وفي رغباته وآفاقه وفي ما يحقق له الاستقرار .

فلو افترضنا أن الخالق الحكيم سبحانه خلق المرأة لمهام الاستخلاف ثم لم يعطها ما أعطى الرجل من القوة والصلابة لكان ذلك ظلما لها، ولو افترضنا أن الخالق الحكيم خلق الرجل وطالبه بمهام الأمومة مع أنه لم يعط ما أعطيت المرأة من العاطفة والقوة الفيزيولوجية التي تؤهلها لمهمة الأمومة، لكان في ذلك ظلم للرجل وتكليف له بما لا يطيق .

فالعلة في الاختلاف التكويني بين الرجل المرأة، أن يعطى الرجل ما يحتاجه من أجل وظيفة الاستخلاف، وتعطى المرأة ما تحتاجه من أجل وظيفة السكن التي هي أساس استدامة هذا الاستخلاف .

وعلى هذا الفرق بنيت الأحكام الشرعية، ولهذا لم يبعث الله رسولة من النساء، ليس ظلما للنساء أو إغفالا لدورهن، بل لأنهن لا يطالبن بمهمة لم يعطين خصائصها، فهن اللواتي سيلدن الأنبياء والمرسلين، وهذا ما أثبتته القرآن الكريم على وجه الإشادة في قصة

آل عمران ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ [آل عمران: ٣٥]، فكان من تقبل الله لها أن جعل ابنتها أما لعيسى عليه السلام، كلمة الله وروحه، وجعلها وإياه آية للعالمين.

إن هذا التفاضل في الخلقة هو الذي بني عليه التفاضل في المكانة، ولو أن الخالق الحكيم أعطى الرجل القوامة دون أن تكون له مميزات خلقية لكان في ذلك تحيز غير مبرر وتفضيل لجنس على جنس دون داع، وهذا ما ينافي الحكمة الإلهية.



المهام السبعة للخليفة

لقد خلق الله ﷻ هذا الكون وهذه الحياة لهدف واحد: يبينه قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المك: ٢]، وقوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات]، وضمن ذلك يأتي مفهوم الاستخلاف الذي هو إعمار الأرض بعبادة الله، ويأتي في مقدمة ذلك إقامة الحق وردع الباطل، لأن طبيعة هذه الأرض أن يصطف فيها الناس فريقان فريق مع الحق وفريق مع الباطل، ومن طبيعة هذا الاصطفاف أن يميل أهل الباطل على أهل الحق، وهذا الميل هو من طبيعة التدافع الذي هو لازم من لوازم الاستخلاف الذي يدعو للسيطرة، فهو أمر لازم للإنسان بطبعه وصفته لا ينفك عنه، وهو بهذا يخالف الحيوانات التي لا تتجاوز أطماعها حاجاتها الطبيعية أن تنال حصتها من الطعام ومجالها من الصيد، فإذا حصلت ذلك خمدت حركتها وانتهى طموحها، أما الإنسان فهو في تطلب مستمر للازدیاد والاستیلاء والمیل على من يليه، لا يملأ عينه إلا التراب، ولذلك لا يمكن أن يقوم مجتمع إلا بسلطة تحمي الناس من الميل على بعضهم البعض، وكما قال تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢]، فالباطل في تأهب دائم ليميل على الحق حين يجد الفرصة لذلك.

وهذه سنة الله في هذه الدار التي رتبها لمعرفة من يقف مع الحق

ويدافع عنه ومن يقف مع الباطل ويطنغي به، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فالرسل بعثوا بالكتاب والميزان لكن لا بد من الحديد وما فيه من بأس شديد ليعلم الله من ينصره وينصر الكتاب والميزان الذي جاء به الرسل.

وهذا التقسيم مطرد في القرآن الكريم متكرر في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقوله قبلها: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ [المجادلة: ١٩]؛ ولا ثالث لهما وإن تعددت المسميات، وعلى هذا الأساس سينقسم الناس يوم القيامة ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى]، ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ ٧ ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ٨ ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ٩ ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ ١٠ [الواقعة].

مهام الخليفة إذن ستبدأ من صراعه مع نفسه إلى صراعه مع الباطل من حوله، وستختلف دائرة تكليفه حسب دائرة نفوذه، فالخليفة الأعظم الذي بيده السلطان له دائرة كبيرة من المسؤولية ثم تضيق بعده الدائرة شيئاً فشيئاً إلى أن تنزل إلى أضيق دوائر الخلافة: بيت الرجل وأسرته، فالرجل خليفة في بيته مهما صغر هذا البيت وصغرت دائرة خلافته وعدد أفراد رعيته، إلا أنه يعيش ذلك الدور ويمارس تلك الغريزة الفطرية بالقوامة التي يعطيه الشرع على أهله وولده، ويطالبه مقابل هذه السلطة والمسؤولية بالرعاية والخدمة والنفقة والتوجيه، يشرفه ويكلفه، يكلفه ويحاسبه، يحاسبه ويثيبه...

إذن صراع الخليفة في دائرتين، صراعه مع نفسه، وصراعه مع العالم من حوله، فتشترك حواء مع آدم في التكاليف المتعلقة بصراع الإنسان مع نفسه وتشترك معه في شيء من تكاليف الأسرة في الجانب

التربوي لكن دائرتها تنتهي عند دائرة الأسرة والجيران ومن هم في دائرة اتصالها، ولا يكلفها الله فوق ذلك من دوائر الصراع إلا في حالات نادرة، فالأصل أن ما فوق ذلك من متطلبات الخلافة هي من اختصاص آدم لا من اختصاص حواء.

من هنا نفهم كيف أن إمامة الصلاة وإقامة الجمعة وإقامة الشرائع والحدود ومجاهدة الأعداء وإقامة دولة الإسلام وما إلى ذلك من التكاليف إنما مناطها الرجل، ليس انتقاصاً من المرأة، وإنما توزيعاً للأدوار حسب الاستعداد.

ولذلك لم يكن في الإسلام إمامة تؤم الناس بالصلاة ولا مؤذنة ولا خطيبة جمعة ولا قاضية ولا خليفة للمسلمين، ولنفس العلة أيضاً لم توجد نبيه ولا رسولة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: ١٠٩]؛ بل أقصى ما وصلت إليه المرأة في هذه المراتب: مرتبة الصديقية التي نالتها مريم ابنة عمران، قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنْ الطَّعَامِ﴾ [المائدة: ٧٥]، ولذلك قال ﷺ في الحديث الذي أخرجه الشيخان وغيرهما: «كُمِّلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ»^(١).

إن الواجب الكفائي الذي يجب على الأمة إقامته وتأثم بتركه، إنما يختص - غالباً - بالرجال دون النساء، فلو لم يُقْمِ المسلمون الجهاد أثم الرجال دون النساء، ولو تعطلت صلاة الجمعة والجماعة فإن الإثم على الرجال ولا يشمل النساء، إذ لا تجب عليهن جمعة ولا جماعة، وصلاتهن في بيتهن خير له، بل صلاة المرأة في عقر بيتها خير

(١) رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).

لها من صلاتها في فنائه .

كل هذه الأحكام إنما تتسق في فهمنا حين نفرق بين الدورين، دور الرجل الخليفة، ودور المرأة سكن الخليفة، وهذا ما يبرر لنا التفاضل الخَلقي والاختلاف الفيزيولوجي بينهما، أي تصبح هذه المزايا مبررة، فكل ميزة أعطيها الرجل أعطي مقابلهما تكليفا، وكل ميزة نزعت من المرأة قوبلت بتخفيف، لتظهر الحكمة البديعة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۖ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [٣] ﴿٤﴾ [الليل]، فشتان ما بين الذكر والأنثى .

يمكننا إذن أن نجمل مهام الخلافة في سبعة قضايا أساسية كلف آدم بها وأعفيت حواء منها ومن تبعاتها وتكاليفها وهذه المهام السبعة هي:

١ - استقبال الرسائل السماوية ونشرها

٢ - إقامة الشرائع وتمكينها

٣ - إقامة الحدود وتطبيقها

٤ - بناء الدول وحمايتها

٥ - مدافعة الباطل ومجاهدته بالقوة

٦ - إعمار الأرض واستخراج ما فيها

٧ - الضرب في الأرض للتجارة والعلم

وقد جمعتها في البيتين التاليين:

رسالة شرائع حدود ودولة دفاعها محمود

والضرب في الأرض مع الإعمار خصائص الرجال في الديار

ومعلوم أن هذه المهام قد اختص بها الرجل عبر التاريخ، وقام بها

بكفاءة عالية، ووصل فيها إلى أعلى درجات الكمال، وبالطبع كان الرجال في المقدمة دائماً، فكمل منهم الكثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاثة أو أربعة على اختلاف الروايات، وليس ذلك لتفوق الرجل، وإنما لتفضيل الله له، أي لما منحه إياه من خصائص وهبته تجلت في الفوارق النفسية والفسولوجية، أي في الاستعدادات التي أهلته لهذا الكمال.

وحيث إنه تفضيل من الله، فلا فضل فيه للرجل ولا فخر له به على الأنثى، وهذا سر الإحالة في قوله تعالى: ﴿يَمَّا فَضَّكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، فإذا كان التفضيل منه سبحانه، فهذا يضمن العدل والحكمة وعدم التحيز، وليس لك أيها الرجل أن تفتخر بما لم تكتسب، إنما هي خصائص خلقية جعلت لك الريادة في الحياة والقوامة على النساء، فأفضليتك لا تعني خيريتك، لأن الخيرية عند الله بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، بل تصبح هذه الأفضلية تكليفاً يتطلب القيام بها خير قيام، وإلا نزل صاحبها عن مقام التفضيل إلى مقام أسفل سافلين، فكل تكليف لم يؤد حقه يتحول إلى ذم وقدرح، وعلى قدر التشريف يقع اللوم والتعنيف.

لقد فاق الرجل المرأة في هذه المهام، ولم تنافسه فيها عبر التاريخ إلا في حالات نادرة تعد على رؤوس الأصابع، لتكون الاستثناء الذي يؤكد القاعدة.





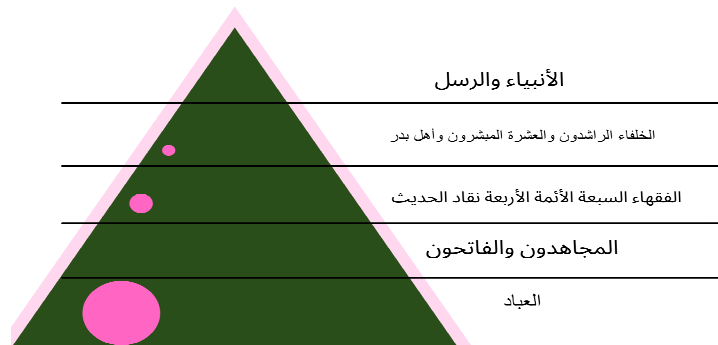
آدم في هرم الرقي الإنساني



إننا حين ننطلق من هذه المقدمات، ونعتمد على هذه الفروقات، ويتبين لنا الخليفة بأدواره التأسيسية والمرأة السكن بأدوارها التكميلية، نأتي إلى الدليل القاطع الذي يكفينا شر هذا الخصام المفتعل بين الرجل والمرأة اللذين تكاملا عبر التاريخ.

هذا الدليل يتجلى في الدور التاريخي للرجل والدور التاريخي للمرأة، فحين ننظر إلى مراقي الهرم الإنساني، نجد أن أعلى ما وصل إليه الإنسان هو مقام الرسالة والنبوة، وأعلى مقام هو المقام المحمود الذي لا يكون إلا لشخص واحد، وهو محمد ﷺ، لكننا نزيد الأمر بياناً من خلال هذا الجدول الذي يبين مراتب الرقي الإنساني وكيف ظهر الفرق جلياً بين الرجل والمرأة:

الأخضر: الرجل . الوردى: المرأة



نبدأ من مقام الأنبياء والرسل فلا نجد نبية ولا رسالة إلا ما قيل عن مريم عليها السلام، لكن الراجح أنها صديقة بنص القرآن ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

□ قال السيوطي في «الكوكب الساطع» ^(١):

واختلفت في خضر أهل النقول قيل: وليّ ونبيّ ورسول لقمان ذي القرنين حوّا مريم والمنع في الجميع رأي المعظم وليس ذلك بإشكال ولا منقصة فيه على المرأة لأنها أصلاً لم تخلق لمهام الخليفة.

فإذا نزلنا إلى المقام الذي يلي مقام الأنبياء نجد خير الناس بعدهم الخلفاء الراشدون والعشرة المبشرون بالجنة وأهل بدر وأهل بيعة الرضوان والسابقون الأولون، فنجد عدد النساء بينهم لا يجاوز عدداً محصوراً، ولا يمكن أن نقارن أدوار النساء بأدوار الرجال العظماء الذين قام على أكتافهم هذا الدين كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، ولذلك وصفوا في القرآن الكريم بوصف يدل على الرجولة والشجاعة والقوة والغلظة والبأس، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فالذين تظهر فيهم صفة الشدة على الكفار والذين يشتد بهم العود فيغلظ ليستوي على سوقه، والذين تظهر سيماهم في وجوههم من أثر السجود والذين يغتاز بهم الكفار: هم صحابته الأشداء، أما النساء ففي بيوتهن يعبدن الله، لا تنطبق عليهن هذه الأوصاف،

(١) ص (٥٩٨).

مع ما هن عليه من الخير والفضل، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، فالذين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم هم الرجال أما النساء فقد أعفاهن الله من هذا.

فإذا نزلنا إلى الطبقة التي تليهم من العلماء والمحدثين وأرباب المذاهب ومصنفي الكتب ومؤسسي العلوم وجامعي الفنون، ومن إليهم المبدأ والمعاد في علوم الدنيا والدين، فلن تجد المرأة إلا على إغماض، ولن تجد مذهباً أو فناً أو تخصصاً يعتمد على كتاب امرأة، هذا إن وجدت ذلك الكتاب أصلاً، وافتح الموسوعة الشاملة الآن وقلب كل باب من أبواب العلم، وانظر إلى كتب التفسير والحديث والفقه والأصول واللغة والتاريخ والأدب والفلسفة، لن تجد المرأة، وليس ذلك ينقص من قدرها إذا علمت أنها هي التي ربت أولئك الأعلام، وأن القسمة الإلهية اقتضت هذا التباين والتفاوت والتمايز والتفاضل، وأن أجر هؤلاء في ميزان المرأة التي هي الأم والمربية، فاتفقا في الأجر واختلفا في الجهد.

وأما في طبقة المجاهدين والفاحين فليس هذا مما يبحث فيه عن المرأة أصلاً، وكل ما قيل عن جهاد صحابيتين أو ثلاث فهو حالات استثنائية تؤكد القاعدة.

بقي باب العبادة وهو الذي يمكننا أن نجد فيه بعض النساء، وهذا أيضاً باب سبق فيه الرجل وذكرت لنا كتب التاريخ أسماء عباد زهاد كان لهم أحوال سنية وأمور يعجب الإنسان منها من أمثال بشر الحافي وإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وغيرهم، بينما لم نجد من النساء إلا رابعة العدوية وعدداً قليلاً لا يكاد يذكر.

إننا حين نتأمل في الهرم الأخضر الذي وضعنا به المقصود، سنجد

هرما آخر خلفه وردي اللون يمثل المرأة في كينونة الأسرة، أي أن المرأة هي التي أنشأت هؤلاء، وإليها يرجع الفضل في كل ما وصلوا إليه، وهذا هو الميزان الذي نقيس به دور المرأة، فكل ما يحققه الأبناء ما هو إلا تأكيد لدورها واعتراف بقيمتها، بل ويعود الأجر في الآخرة إليها، فكل علم الإمام أحمد هو في ميزان أمه، وكل جهاد عبد الله بن الزبير ستنال منه أمه أسماء التي ربته على تلك المعاني العظيمة.

فالمشكلة إذن حين ننظر إلى تاريخ المرأة بعيون الرجل، فنجدها لم تنجز شيئاً، أو شيئاً ضئيلاً جداً، لكن الإنصاف أن ننظر إلى تاريخ المرأة بعيون المرأة، وبمقاييس المرأة، وبالمواصفات الخلقية التي أهل الله لها المرأة، وبالأدوار التاريخية التي قامت بها المرأة.





لماذا غابت المرأة عن مشاهد الإسلام العظيمة؟



حين نطبق ما قررناه أعلاه على تاريخنا وسيرة نبينا ﷺ وسيرة خلفائه الراشيين، فإننا نجد ذلك متسقاً لا ينحرم، خليفة يقيم الدولة والدين، وسكن يؤويه ويحنو عليه. لذلك لن تجد المرأة في المشاهد العظيمة التي كان لها تأثير كبير في مسيرة الإسلام، لقد حضر الرجال وغابت النساء.

لقد شاركت امرأتان في بيعة العقبة الثانية، وكان ذلك قبل نزول الشرائع المنظمة لحياة المجتمع، فلما نزل التشريع اتضح الفرق بين دور الرجال ودور النساء، وعرف الناس مكانة المرأة دون أن يدخلوها في شؤون الحياة العامة، وعلى هذا نفهم قول عمر الخطاب: «كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا نَعُدُّ النِّسَاءَ شَيْئًا، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَذَكَرَهُنَّ اللَّهُ، رَأَيْنَا لَهُنَّ بِذَلِكَ عَلَيْنَا حَقًّا، مِنْ غَيْرِ أَنْ نُدْخِلَهُنَّ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِنَا» رواه البخاري (١).

ولذلك لم نر المرأة تشارك في هذه المشاهد ومن بينها:

مجالس المشاورة: والتي كانت تعقد بين يدي رسول الله ﷺ والتي اتخذت فيها قرارات كبيرة منها قرار الخروج إلى غزوة أحد، حيث ذكر في السيرة ما جرى من الحوار في مسجد رسول الله ﷺ

(١) (٥٨٤٣).

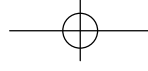
ونسأؤه في الحجرات ربما سمعن ما يجري، لم يكن لهن مشورة في هذه الأمور التي هي من شؤون الرجال.

وقد ثبت مرارا قوله ﷺ لأصحابه أشيروا علي، ولم يثبت أنه قال ذلك مرة لنسائه، إلا ما كان من أم سلمة فإنها بادرت بالمشورة فأخذ بها، وقد بوب البخاري للحديث بجواز مشاورة المرأة، وهذا أمر سائغ لا إشكال فيه، وهو غير ما نراه اليوم من محاولة إدخال المرأة في كل شؤون المسلمين.

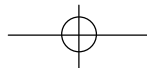
سقيفة بني ساعدة: وهي من أعظم اللحظات التي مرت بها الأمة، وكادت أن تكون فتنة لولا لطف الله، وقد حضر السقيفة عدد كبير من الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر، وكانت عائشة رضي الله عنها وفاطمة رضي الله عنها مع سائر أمهات المؤمنين، قارات في بيوتهن لم يحضرن ولم يستدعين ولم يسأل أحد لماذا لم يستدعين، فلقد كانت هذه الحادثة كغيرها من الحوادث العظيمة التي يتولى الرجال فيها القرار، ويسمع النساء بذلك فلا يشعرن بحرج ولا استثقال.

بيعة عمر وعثمان وعلي: ولقد كانت كل بيعة حدثا عظيما اجتمع له أصحاب رسول الله ﷺ، وتشاوروا وتناقشوا واختلفوا، بل عين عمر رضي الله عنه ستة من الصحابة ليعينوا واحدا منهم خليفة له، وعائشة في بيتها، لم يستدعها أحد، ولم ير في ذلك أحدهم انتقاصا من دورها، ولم تطلب هي ذلك، فلقد علم كل أناس مشربهم.

تعيين الولاة والعمال وجباة الزكاة: فلقد كان لرسول الله ﷺ عمال وجباة، وكان لخلفائه ولاة وأمراء، ولم يتم تعيين امرأة واحدة في منصب من المناصب على مر التاريخ، وأما ما يذكر عن الشفاء فهو خطأ أنكره جلة العلماء، ولم يثبت فيه شيء، ولو كان أحد موليا امرأة لولاهن رسول الله ﷺ.



إن هذا المبحث لم يكن ليدرج في كتاب، أو يتكلف ببيانه أحد من أولي الألباب، لولا هذه الانتكاسة الحضارية التي نعيشها اليوم، والتي استولت على عقول المسلمين قبل غيرهم، فأصبحنا نحضر المرأة في كل مقام، كي لا يقال عنا إننا نحقر المرأة، بل أصبح ضغط هذه التهمة يلاحقنا حتى في أضيق دوائر العمل الإسلامي.



شقائق الرجال في الأحكام، لا في الأدوار

جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فسألته عن الماء الذي تراه المرأة في احتلامها هل يوجب عليها الغسل، فقال: «نعم، إنما النساء شقائق الرجال»^(١).

وهكذا اقتطع هذا النص من مكانه، واستخدم ليعارض منظومة متكاملة من النصوص والأحكام والوقائع والأحوال التي كانت عليها الأمة الإسلامية، وكأن هذا الحديث لم يكتشف إلا الآن، وهذه آفة الهوى، وطريقة المزوقين الذين أخذوا على عاتقهم إخراج الشريعة بصورة جميلة لا تغضب المنظومة الغربية.

إن هذا الحديث دليل على أن الأحكام الفقهية المتعلقة بالعبادات والمعاملات يشترك فيها الرجال والنساء على حد سواء، إلا أن الكل يعلم ما استثنته الشريعة من الخصائص التي خص بها الرجال، والتي يمكن ملاحظتها بوضوح في كل ما يعبر عنه الفقهاء بالواجب الكفائي الذي إذا قام به البعض سقط عن الكل.

فالجمع والجماعات والأعياد والجناز والجهاد والحدود وأغلب الأحكام المتعلقة بالواجب الكفائي إنما هي أحكام يَأْثَمُ بتركها جميع

(١) حسن: رواه أبو داود (٢٣٦)، والترمذي (١١٣)، وابن ماجه (٦١٢)، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط، وصححه الشيخ الألباني.

الرجال، ولا يَأْثَمُ النساءُ لأنها لا تخصهم بالأساس .
ولو نظرنا في كلمة شقائق لوجدنا أنها لا تعني التساوي، فكم من شقيق فاق شقيقه في الدنيا نجاحاً وفي الآخرة فلاحاً، بل يعجب الإنسان من شدة ما قد يكون بين الأشقاء من التباين والاختلاف في الكفاءات والمواهب وما يخلفه أحدهما من علوم أو أموال أو انتصارات، حتى لا تكاد تصدق أن أحدهما شقيق الآخر .

فكيف نترك الأدلة الصريحة في التباين والتفاضل بين الرجال والنساء، لنعارضها بهذا الحديث الذي يشهد سياقه على المقصد منه، ولذلك لم يستخدمه أحد من العلماء في هذا المعنى، إلا ما كان من المعاصرين الذين عصروا النصوص ليوافقوا الصورة التي يريدونها .



لماذا لم تقدم المرأة ما قدم الرجل؟

لقد بحثنا عن المرأة في التاريخ فلم نجد لها أثرا كبيرا، لا في حضارتنا الإسلامية ولا في حضارات الأمم التي سبقتنا، فهؤلاء فلاسفة الرومان واليونان والإغريق لا تجد بينهم امرأة، إلا فيما ندر، والسؤال الآن ما الذي منع المرأة من منافسة الرجل في هذا الباب؟

وللجواب على هذا السؤال ليس لدينا إلا فرضيتين لا ثالث لهما، إما أنها كانت مقهورة من الرجل، وهذا يفترض أن الرجل يكرهها، وهو عكس ما تدعو إليه الفطرة البشرية، أو أنه يحسدها، ولا دافع يدعو إلى الحسد وقد ميز عليها، وكلا الأمرين بعيد، وبالتالي فينبغي أن نعتقد أن الرجل ظلم المرأة لسبب خفي لا نعلمه، كي نوجد الدافع لهذا الظلم المزعوم.

وأما الفرضية الثانية فهي أن المرأة لم تكن مظلومة ولا مقهورة، لكن حال بينها وبين العلوم عوائق بدنية ودينية وحقوقية.

لذلك نقول: إن المرأة لم تقدم ما قدم الرجل لأنها في الأصل لم يطلب منها ما طلب من الرجل، ولأنها لم تعط ما أعطي الرجل، ولأنها شغلت عن ذلك بمعيقات شرعية وفطرية وحقوق شاغلة، لا تتم حياة الإنسان إلا بها، فقام هو بدور الاستخلاف التأسيسي وانشغل به وقامت هي بدور الاستخلاف التكميلي وانشغلت به.

إن النظر إلى حياة المرأة بمقياس الرجل فيه ظلم كبير لها، فهي قد خلقت بمعيقات فطرية أضيفت إليها معيقات شرعية، تجعلها لا تفلح فيما يفلح فيه، ولا يفلح هو فيما تفلح هي فيه .

أما المعيقات الفطرية فالحمل والولادة والتربية وحقوق البيت والزوج والأبناء، وهي تأخذ من عمرها أفضل سنوات شبابها، فلو كان لها ستة أطفال، فإن لكل طفل سنة حمل وسنتي رضاع وسنتي رعاية إلى أن يستقل عنها، فهذه ثلاثون عاما كاملة، زد عليها ما يحتاجه الأطفال في نموهم إلى أن يبلغوا، فهي إذن منهكة بدور عظيم كان هو الأساس في كل ما عرفته حضارة الإسلام من نهضة ونصر وقوة وتمكين .

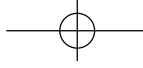
وأما المعيقات الشرعية فتكمن في أمرها بالقرار في بيتها، ونهيها عن الخروج إلا لحاجة ومنعها من السفر إلا بمحرم، ومنعها من الاختلاط بالرجال والخلوة بهم، ومنعها من دخول المسجد في الحيض، وهذا وحده كاف لئلا تصل إلى ما وصل إليه الرجل في ميادين العلم والتأليف والرواية، فكيف والمعيقات الفطرية تصاحبها مع كل تلك الآلام والتقلبات المزاجية .

نعم لقد كانت الرحمة الإلهية بالمرأة متجلية في قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٣٣] رحمة لن تقدّر لها حق قدرها إلا المرأة الغربية، التي حرمت من حقها في البيت وحقها في الأمومة وحقها الأصلي في عدم العمل .

إن نصوص الشريعة كلها متظاهرة متظافرة على قرار المرأة في بيتها، وعلى هذا عاشت المرأة طيلة عمر الإسلام، ولم تتعرض لهذه الضغوط الطاردة لها من البيت إلا في ظل الحضارة الحديثة التي عيرتها

بأمر قد أمرها الله به، فجعلت قرارها في البيت بطالة وهو شغل شاغل، وعمل عظيم، وحقرت في عينيها الأمومة وهي التي تصنع الأمم.



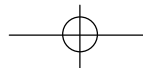


الرجل صنع الحضارة، والمرأة صنعت الإنسان



نعم، لقد كانت المعادلة هكذا، فهذا الأسطول من الفاتحين والمجاهدين وهذه الجيوش الجرارة، إنما هي نتاج نسوة سهرن الليالي وتحملن المشاق من أجل أن يكون هذا الإنسان بهذه المواصفات البدنية والثقافية التي تجعل منه شكلاً معيناً وعقيدة معينة تجعله يعيش لقضية معينة، صحيح أن المرأة لم تفعل ذلك بوعي دائماً، لكنها فعلته على كل حال، فعلته بمشاركة الأب والمجتمع والتاريخ، إلا أنها كانت البداية لكل هذا الأمر، بما عانت منه من حمل وولادة ورضاعة وتربية .

لقد أوحى الله إلى أم موسى أن أرضعيه، ولقد كانت هذه الرضاعة وهذا الاحتكاك بالأم هو الحامي بعد الله ﷻ لموسى من مجتمع فرعون، فقد نمى بينهم وهو ليس منهم، ولعب مع أطفالهم لكنه كان يدرك أنهم عدو له، ولهذا حين دخل المدينة على حين غفلة من أهلها ووجد فيها رجلين يقتتلان، لم يجد صعوبة في أن يميز من هو من شيعته ممن هو من عدوه، مع أن الأصل أن يكون الذي من شيعته هو الذي من قوم فرعون والذي من عدوه هو الذي من بني إسرائيل، لكن دور أم موسى هو الذي قلب المعادلة وأعاد كتابة الهوية الانتمائية لهذا الطفل الصغير الذي تبناه فرعون وزوجته ليكون لهم عدواً وحزناً؛ قال تعالى: ﴿فَالْقَظَّةُ: أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] .



لقد خرج موسى من قصر فرعون وهو يحمل كل قيم الشرف والرجولة والأمانة، فدافع عن المظلوم، وساعد المرأتين، وآوى إلى الظل بعد أن قدم لهما المعروف، ودعا الله أن يرزقه، وكانت علامات الشرف ظاهرة عليه ﴿إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَجَرْتَ أَلْقَوْنِي الْأَمِينُ﴾ [القصص]؛ فإذا كانت قوته البدنية ظاهرة، فإن قوته الأخلاقية ظاهرة بقدر ظهور قوته البدنية، كل هذا وهو لم يبعث نبيا بعد.

فلو قدر أن موسى قبل المراضع التي عرضت عليه، ولم ترضعه أمه، لما كان موسى الذي نعرف، موسى الذي اصطنعه الله على عينه ﴿وَلِصْنَعِ عَلَى عَيْنَيَّ﴾ [طه]؛ فهياً له الأسباب العجيبة لكي تحضنه أمه، فترضعه لبنها، وترضعه مع اللبن القيم والأخلاق.



الأفضلية، لا الخيرية

إن أفضلية الرجل على المرأة على جلائها في الشريعة الإسلامية وفي التاريخ الإنساني لا تعني خيريته، وهذا الذي جعل كثيرا من الناس يخلط في هذه المسألة ويقف موقف التشكيك في الآيات والأحاديث الواضحة البينة، وما ذاك إلا لسببين:

١ - الهزيمة النفسية التي نعيشها أمام الأفكار الغربية .

٢ - عدم التفريق بين الأفضلية والخيرية .

فالخيرية إنما ترتبط بالعمل الصالح، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَن تَبْغُوا بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ [الأحزاب: ٣٥]، إلى آخر الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ [الحجرات: ١٣]، فهذه في الخيرية، ولذلك هي لا تعارض آيات التفضيل التي قال الله فيها: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَى نِسَاءٍ دَرَجَةً﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤] .

بل إن من تمام العدل أن تنال المرأة ما يناله الرجل من أجور وأعمال، فأم العالم تنال من الأجر مثل ما يناله ابنها، فهو حسنة من حسناتها، وأم المجاهد تنال أجر جهاده، وهكذا تكتمل صورة الرحمة الإلهية في أن تنال المرأة أجر الرجل دون أن تتكلف تكاليفه، ولا يستغرب ذلك في كرم الله .



المظاهر النفسية للاستخلاف التأسيسي للرجل



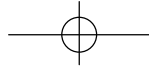
القيادة:

أول مظاهر الشعور بالخلافة عند آدم هو حبه للتأمر والقيادة، ولذلك اعتبرت شهوة الرئاسة أكبر شهوة لدى الإنسان، وهي وإن كانت مشتركة بين الرجل والمرأة كأغلب الصفات، إلا أن الفرق في شدة ظهورها في الرجل وسعيه لها، ومغامرته بنفسه من أجل الوصول إليها، مما أودى بحياة الكثير من الرجال، والقصص في هذا أكثر من أن تعد وتحصى.

لقد أرجع علماء السيكولوجيا رغبة الرجل في القيادة وقدرته عليها إلى هرمون التسترون الذي تكون نسبته أكثر بحوالي ٩٠٪ منه لدى النساء، وهو المسؤول عن مجموعة من الصفات الذكورية، مثل الشجاعة والحزم والغضب، وعلى قدر ذلك النقص يكون نقص هذه الصفة في الأنثى، ولذلك لم تقد الأنثى في التاريخ إلا في مواضع محدودة، وحتى وإن قادت فإن ذلك إنما يحدث على سبيل الاستثناء، ولا يؤدي إلى النتائج المقصودة غالباً، ولذلك قال ﷺ: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»^(١).

□ قال ابن تيمية رحمه الله: «وليحذر العاقل من طاعة النساء في ذلك،

(١) رواه البخاري (٤٤٢٥).



ففي الصحيحين عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدي فتنةً أضر على الرجال من النساء»^(١).

وأكثر ما يفسد الملك والدول طاعة النساء وفي صحيح البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»^(٢). وروي أيضا: «هلكت الرجال حين أطاعت النساء»^(٣). وقد قال رضي الله عنه لأمهات المؤمنين لما راجعنه في تقديم أبي بكر: «إنكن صواحب يوسف»^(٤). يريد أن النساء من شأنهن مراجعة ذي اللب كما قال في الحديث الآخر: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب للرب ذي اللب من إحداكن»^(٥). ولما أنشده الأعشى أعشى باهلة - أبياته التي يقول فيها:

وَهُنَّ شَرُّ غَالِبٍ لِمَنْ غَلَبَ

جعل النبي ﷺ يرددها ويقول: «وَهُنَّ شَرُّ غَالِبٍ لِمَنْ غَلَبَ»^(٦) ^(٧). يقول القرطبي عند حديثه عن مسألة ولاية المرأة القضاء: «روى البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»^(٨).

(١) رواه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

(٢) تقدم قريبا.

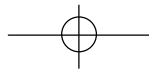
(٣) ضعيف: رواه أحمد (١٠٦/٣٤)، والحاكم (٢٩١/٤)، وضعفه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق «المسند».

(٤) رواه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨).

(٥) رواه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩).

(٦) ضعيف: رواه أحمد (٤٧٨/١١)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٦١/٢)، وأبو يعلى (٦٨٧١)، وضعفه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند».

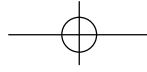
(٧) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٦/٢). (٨) تقدم.



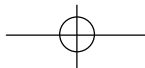
□ قال القاضي أبو بكر بن العربي: «هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه، ونقل عن محمد بن جرير الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولم يصح ذلك عنه، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضي فيما تشهد فيه وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق؛ ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدمة على الحكم، وإنما سبيل ذلك التحكيم والاستنابة في القضية الواحدة، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير. وقد روي عن عمر أنه قدم امرأة على حبة السوق. ولم يصح فلا تلتفتوا إليه، وإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث».

□ ثم ساق الخلاف الذي حصل بين القاضي أبي بكر بن الطيب مع ابن طرار فقال: «وقد تناظر في هذه المسألة القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي الأشعري مع أبي الفرج بن طرار شيخ الشافعية، فقال أبو الفرج: الدليل على أن المرأة يجوز أن تحكم أن الغرض من الأحكام تنفيذ القاضي لها، وسماع البينة عليها، والفصل بين الخصوم فيها، وذلك ممكن من المرأة كماكانه من الرجل. فاعترض عليه القاضي أبو بكر ونقض كلامه بالإمامة الكبرى، فإن الغرض منه حفظ الشغور، وتدبير الأمور وحماية البيضة، وقبض الخراج ورده على مستحقه، وذلك لا يتأتى من المرأة كتأتيه من الرجل. قال ابن العربي: كلام الشيخين في هذه المسألة ليس بشيء، فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجلس، ولا تخالط الرجال، ولا تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها، وإن كانت برزة لم يجمعها والرجال مجلس واحد تزدهم فيه معهم، وتكون مناظرة لهم، ولن يفلح قط من تصور هذا ولا من اعتقده»^(١).

(١) «تفسير القرطبي» (١٣/١٨٤).



لقد راعى الشرع هذه الخاصية في الرجل، فشرع له أحكاما تتوافق مع حاجته الغريزية إلى القيادة، فمكنه من قيادة أسرته بمفهوم القوام، بل وجعل في المرأة استعدادا فطريا لتبعية الرجل والانقياد له ضمن منظومة الأسرة. لقد جعل الشرع مفهوم الطاعة في الحياة الزوجية أساس الحقوق الزوجية، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤]، وأباح تأديب الزوجة إذا رفضت الطاعة، كل ذلك ليجد الرجل انشراحه في بيته الذي يكون فيه صاحب الكلمة العليا، لا تنازعه في ذلك زوجته، بل تطيعه طاعة لله، وتحقيقا للسكن الذي من أجله خلقها الله.





هل أفلح قوم بلقيس حين وثّوا أمرهم امرأة؟



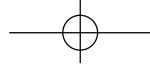
هل انخرمت قاعدة الخليفة وسكنه بورود بعض الحالات التي نجحت فيها المرأة في القيادة؟

من المعلوم أن الاستثناء لا يهدم القاعدة، بل وجود عدد محدود جدا من النساء وصلن إلى مركز القيادة، يؤكد إشكالية الاستعداد، وأنهم إنما قل عددهم في هذه المناصب لما ذكرناه من اختلاف في الخلقة أدّى إلى اختلاف في الاستعداد وهو ما ظهر في واقع التاريخ للأمم السابقة كلها.

لقد وردت قصة بلقيس في القرآن الكريم في سياق الإخبار عن نبي الله سليمان وما كان عليه من القوة والتمكين، ويستدل بها البعض على أنها نموذج للقيادة الحكيمة للمرأة، حتى إنهم جعلوا من هذه القصة صورة تعارض ما أخبر به الرسول ﷺ من أنه «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»^(١) مع أن القرآن لم يشر إلى قيادتها بمدح ولا ذم، وإنما ذكر ما كانت عليه حالها، ولم أجد من المفسرين من أثنى على قيادتها وحكمتها، ولذلك كان ينبغي للسببين السابقين:

(تعارض قصة فلاحها مع قوله ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»، وعدم سياق القرآن للقصة في مقام المدح) كان ينبغي أن

(١) صحيح: وقد تقدم.



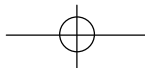
نعيد النظر في هذه القصة ومدى دلالتها على أهلية المرأة للإمامة العامة، خصوصاً مع ما نعلم من حرمة ذلك في الشريعة الإسلامية. إننا حين ننظر إلى هذا النموذج وفق المقاييس السياسية فإننا نلاحظ فيه علامات استبداد ظاهرة، وملامح ملك عضود، فمن ذلك:

١ - التبذير والمباهاة، ويتجلى ذلك في مظاهر البذخ ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، وفي عرشها العظيم الذي استحق التنويه به في القصة في ثلاثة مشاهد، الإخبار عن عظمته ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وحرص سليمان على الحصول عليه ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرَاشًا﴾ [النمل: ٣٨]، والاستدلال به عليها ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ [النمل: ٤٢].

٢ - نظام الملك وهو مبني على التوريث والاستبداد، فهي ابنة ملك، وعليها كل مظاهر عظمة الملك المرتبطة بالطغيان، ولذلك وصف الهدهد نظام ملكها بقوله ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٣].

٣ - استخدامها المال لشراء الذمم وكسب المواقف كعادة كثير من الطغاة، ولذلك أرسلت بهدية عظيمة إلى سليمان ﴿وَلِإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرُهُ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]، وهذا ما فهمه سليمان من الهدية، إذ اعتبرها شراء للذمة فقال: ﴿أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ [النمل: ٣٦]، ومن علامات المستبد أنه محب للمال حريص عليه ولذلك قال سليمان ﴿بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ فَفَرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

٤ - إقامة مظاهر شورى صورية ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي أَمْرِ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]، وأصلها تشهدوني أي تحضروني من الشهود أي الحضور وليس من الشهادة التي قد تدل على الشورى، فهي طلبت منهم الإفتاء لكنهم اكتفوا بإعادة الأمر إليها، فكان حضورهم عندها إنما هو مشهد من مشاهد تعظيم رأيها واستعراضها به أمام



الملا من قومها كما يفعل بعض الطغاة اليوم، لهذا لم يعارضها أحد ولم يبد رأيا، بل كل ما في الأمر أنهم ردّدوا العبارة التي تدل على الطاعة العمياء والاستبداد التام ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣]؛ إذ أكدوا استبدادها بالرأي الذي ظهر من خلال:

أ - عدم إبدائهم لأي رأي.

ب - تقريرهم للطاعة بجملتين: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾، وجملة ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾؛ مع أنه كان يكفي إسنادهم الأمر إليها.

٥ - أنها لم تصل إلى مقتضى العقل والحكمة والرشاد الذي يمليه الموقف، فقد رأت من شواهد الأدلة ما كان ينبغي معه أن تصدق بهذا الرسول الذي وصلت رسالته إليها بطريق معجز، أو كان يمكن أن تبعث من يسمع منه أو تذهب بنفسها للسمع منه، لكنها على طريقة الملوك اختارت سلطان المال، فجهزت هدية عظيمة، ذكر فيها المفسرون أقوالا عجيبة تظهر مدى ثرائها.

٦ - لقد رفض سليمان الهدية، على غير عادة الأنبياء ﷺ، وليس ذلك تكبرا منه، ولكن لأنه فهم أنها ليست هدية وأنها مد بمال، أي أنها رشوة ﴿قَالَ أَتُمْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا ءَاتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُمُ﴾ [النمل: ٣٦]، ثم أكد على طبيعة الاستبداد والظلم المصاحب للأبهة والبذخ أن من طبيعته الفرح بالمال والهدية ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]، فلو قبل منها المال لربما كان في قبوله لمالها تنازلا عن رسالته واعترافا بملكها العضود.

□ قال ابن عاشور: «وقد أبى سليمان قبول الهدية؛ لأن الملكة أرسلتها بعد بلوغ كتابه، ولعلها سكتت عن الجواب عما تضمنه كتابه

من قوله: ﴿وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]، فتبين له قصدها من الهدية أن تصرفه عن محاولة ما تضمنه الكتاب، فكانت الهدية رشوة لتصرفه عن بث سلطانه على مملكة سبأ^(١).

□ وقال ابن كثير: «أي أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف»^(٢).

إن المشهد الوارد في قصة بلقيس متكرر لدى كثير من المستبدين الذين يقيمون أنظمة وهمية تحقق لهم صورة الشورى لا حقيقتها، لكن الشورى الفعلية تظهر من مدى تحقق المشاورة لدى أهل المشورة، فإذا كانوا وهم ثلاث مائة ونيف كما ورد عن قتادة، لا يبدون أي مقترح ولا يدلون بأي رأي، سوى إعلانهم الاستعداد لتنفيذ ما تأمر به، فإنما يدل ذلك على ترسخ عقلية الرأي الواحد، والطاعة المطلقة، ولذلك روي عن الحسن البصري أنه قال: «فوضوا أمرهم إلى عُلجة تضطرب ثدياها»^(٣).

□ وقد لَمَحَ إلى ذلك ابن حيان في «تفسيره» فقال: «وهذا دليل على الطاعة المفرطة أي نحن ذكرنا ما نحن عليه ومع ذلك فالأمر موكل إليك، كأنهم أشاروا عليها أولاً بالحرب، أو أرادوا: نحن أبناء الحرب لا أبناء الاستشارة، وأنت ذات الرأي والتدبير الحسن فانظري ماذا تأمرين به نرجع إليك ونتبع رأيك»^(٤).

□ ولمح إلى ذلك الزمخشري بقوله: «وقصدت بالانقطاع إليهم

(١) «التحرير والتنوير» (٢٦٨/١٩).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١٩١/٦).

(٣) «تفسير ابن كثير» (١٨٩/٦).

(٤) «البحر المحيط» (٢٣٦/٨).

والرجوع إلى استشارتهم واستطلاع آرائهم : استعطافهم وتطبيب نفوسهم ليماؤوها ويقوموا معها»^(١).

فأكد أن استشارتهم لم تكن بقصد إبداء الرأي وإنما ليماؤوها على ما أرادت .

إن كل هذه الملامح تؤكد أن بلقيس لا يمكن أن توصف بالعدل أو النظام الشوري، بل هي أقرب إلى أنظمة الملك العضود، مع أن هذا لا ينفي ما ظهر من عقلها وحنكتها، وهذا كائن في كثير من الملوك الذين يجتمع فيهم الاستبداد وحسن التدبير، فهي آثرت السلامة والمسير إلى سليمان بعد أن عاد إليها رسوله بالتهديد ﴿ أَتَجْعَلُ لَهُمُ الْحِكْمَ يَلْعَنُوا إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيُّبَنَّهُمْ بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ ﴾ [النمل]، وعادت إليها رسلها بما رأت من حال سليمان وما معه من الجن والإنس والطير، فأثرت أن تذهب إليه لما ظهر لها من أحواله وقوته، خصوصا أنه رفض الهدية وردها معه مما أكد لها نبوته لا كونه ملكا، فدل ذلك على أن بلقيس لم تكن نموذجاً يحتذى في الحكم، وإن كان فيها عقل وحكمة .

لذلك لا يمكننا أن نعارض بهذه القصة قوله ﷺ «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»

□ قال القرطبي: «وقال أبو بكر: ذكرت بلقيس عند النبي ﷺ فقال: (لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)»^(٢).

فإذا صحت هذه الرواية فهي نص في أن ملك بلقيس لم يكن فلاحا .

□ قال الشيخ أبو بكر الجزائري في بيانه لهدايات القصة: «ومنها تحقيق قول الرسول ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»، إذ لم

(١) «تفسير الزمخشري» (٣/٣٦٤).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٣/٢١١).

يلبثوا أن غلب عليهم سليمان»^(١).

وإلى هذا المعنى أشار ابن باديس في «تفسيره» حين أجاب عن الاعتراض بقصتها على الحديث:

□ فقال: «هذا اعتراض بأمر واقع، ولكنه لا يرد علينا. لأن الفلاح المنفي هو الفلاح في لسان الشرع، وهو تحصيل خير الدنيا والآخرة، ولا يلزم من ازدهار الملك أن يكون القوم في مرضاة الله، ومن لم يكن في طاعة الله فليس من المفلحين، ولو كان في أحسن حال فيما يبدو من أمر دنياه، على أن أكثر من ولّوا أمرهم امرأة من الأمم إذا قابلهم مثلهم، كانت عاقبتهم أن يغلبوا»^(٢).

وإنما أطلنا في هذه القصة لكي لا يتسلل منها من يريد الطعن في أصول الشريعة الإسلامية التي بني عليها نظام الأسرة والقوامة، فكثيرا ما شغب المضلون بهذه القصة ليشوشوا على الشريعة، ويضربوا النصوص بعضها ببعض.



(١) «أيسر التفاسير» (١٦/٤).

(٢) «مجالس التذكير» (٢٧٤/٣).

الخليفة في بيته

نأتي هنا لنربط بين هذه الفطرة وبين الأحكام الشرعية المتعلقة بالحياة الأسرية حيث يمارس الرجل دوافع فطرته الغريزية نحو الخلافة والقيادة وفق مبدأ ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، الذي هو مبدأ حاكم لكل التصرفات والأحكام.

وكما قدمنا فإن هذا المطلب الفطري ضروري لدى الرجل، وكل رجل هو خليفة يسعى لتحقيق مظاهر خلافته، وأهم مظاهرها القيادة، التي تستوجب أن يأمر فيطاع، لذلك لا تتحقق للرجل سعادته إلا إذا أحس بمكانته كخليفة وعاش حياته بشيء من ذلك الشعور الذي يحقق له إحساسه بقيمته كأمر ونه، وعليه فإن مجال استخلافه قد يتسع وقد يضيق حسب مكانته وقدراته ومؤهلاته، إلا أن الإسلام قد ضمن له الحد الأدنى من هذه الحاجة الفطرية وذلك عبر ترتيب علاقة الأسرة بشكل تصاعدي يجعله في قمة الهرم، ويعطيه من السلطات ما يجعله خليفة في بيته على أسرته وأبنائه مهما كان بيته صغيراً وإمكانياته محدودة.

صحيح أن هذه الغريزة كغيرها معرضة للطغيان وتجاوز الحد، ولذلك هذبها الشرع بما أودع في فطرة الرجل من غريزة الاحتياج إلى المرأة، وما يتولد في وجدانه من المودة والرحمة لها، وما تناله بعلاقة الأمومة من مكانة في نفسه تجعلها أهم إنسان لديه.

إن القوامه هي المظهر الجلي لقيادة الرجل، قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ

قَوَّموْنَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴿[النساء: ٣٤]﴾، وقال في نفس الآية موضحا المعنى الذي تنال به المرأة صفة الصلاح: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنِينَتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، والقائنات المطيعات لأزواجهن، ولذلك قال ﷺ: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة»^(١)، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

فطاعة الزوج أساسية في مفهوم القوامة، وإن حاول بعض المتأخرين أن يحرفوا مفهوم القوامة ويقصروه على الرعاية لكن الآية واللغة لم تسعفهم لتحريف المعنى الأصلي الذي يؤطره القرآن والسنة النبوية التي تحول دون ليّ عنق النص تحت ضغط الحداثة والتعايش مع القيم الجديدة.

فالقوامة في قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ تشمل الطاعة ولا بد، ولذلك قال تعالى في نفس الآية بعد أن وجه إلى وعظ المرأة الناشز أو هجرها أو ضربها قال ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]، قال فإن أطعنكم: فجعل طاعة المرأة لزوجها لازما من لوازم القوامة، وبه يرتفع عنها الهجر وما يليه، ولن أطيل في شرح القوامة فالذي يهمني منها الآن هي طاعة الزوج التي هي مظهر من مظاهر الاستخلاف الذي نتحدث عنه، كما لا أطيل بذكر ما كُلف به الرجل من المعاشرة بالمعروف والإحسان حتى كان معيار الخيرية قوله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله»^(٢)؛ حيث يضيف إلى

(١) حسن: رواه الترمذي (١١٦١)، وابن ماجه (١٨٥٤)، والحاكم (١٦١/٤)، وقال الترمذي: «حسن غريب»، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وضعفه الشيخ الألباني، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط عند ابن ماجه.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٨٩٥)، وابن جبان (٤١٧٧)، والبيهقي في «الشعب» =

القوامة صفة الرحمة التي هي ضرورية لاستقرار الحياة وأساسية لكمال الرجولة، إذ ليس مقصدنا في هذا الكتاب الحديث عن العلاقة الزوجية، فإذا ظهر المقصود وبانت العلاقة بين الطاعة وبين مبدأ الاستخلاف التأسيسي فقد تم لنا المقصود.

لكي نقطع سبيل الخلاف في فهم القوامة نورد ما قاله المفسرون:

□ قال ابن جرير الطبري: «الرجال أهل قيام على نساءهم، في تأديبهن والأخذ على أيديهن فيما يجب عليهن لله ولأنفسهم ﴿يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ يعني: بما فضل الله به الرجال على أزواجهم. وذلك تفضيل الله ﷻ إياهم عليهن، ولذلك صاروا قوَّامًا عليهن، نافذي الأمر عليهن فيما جعل الله إليهم من أمورهن»^(١).

□ وقال البغوي: «﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ مسلطون على تأديبهن، والقوام والقيم بمعنى واحد، والقوام أبلغ وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب.

﴿يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني: فضل الرجال على النساء بزيادة العقل والدين والولاية، وقيل: بالجهد، وقيل: بالعبادات من الجمعة والجماعة...»^(٢).

□ وقال ابن كثير: «أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت ﴿يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ أي: لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة؛ ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال وكذلك الملك الأعظم... فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها

= (٨٣٤٤)، وصححه الشيخ الألباني، والشيخ شعيب الأرناؤوط.

(١) «تفسير الطبري» (٦/٦٨٧).

(٢) «تفسير البغوي» (٢/٢٠٧).

والإفضال، فناسب أن يكون قيما عليها»^(١).

□ وفي «تفسير الجلالين»: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ» يؤدبونهن ويأخذون على أيديهن ﴿يَمَّا فَضَلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي بتفضيله لهم عليهن بالعلم والعقل والولاية وغير ذلك ﴿وَيَمَّا أَنْفَقُوا﴾ عليهن ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ فَالْصَّالِحَاتُ ﴿مِنْهُنَّ﴾ قَنِينَتٌ ﴿مَطِيعَاتٌ لِأَزْوَاجِهِنَّ﴾^(٢).

إذا يمكننا إجمال معنى القوامة في ما يلي:

١ - رعاية المرأة والقيام بحقوقها.

٢ - التقويم لسلوكها وأخلاقيها.

٣ - طاعتها للزوج في المعروف.

٤ - معاشرته لها بالمعروف.

ثبت إذن أن الرجل في بيته خليفة له أن يأمر فيطاع، إذا كان أمره لا يخالف الشرع ولا يخالف العرف ولا يكلف المرأة ما لا طاقة لها به.

ولأن الرجل في بيته خليفة فقد راعى الإسلام خصوصيته الكاملة فنهى عن الدخول إلى بيته إلا باستئذان ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]، وجعل له الرخصة في رد من يريد أن يقتحم عليه مقر سلطانه في وقت لا يناسبه فقال تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَازْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

وجعله صاحب البيت والمسؤول الأول فيه، قال ﷺ: «فالرجل راع في بيته ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/٢٩٢). (٢) «تفسير الجلالين» ص (١٧٧).

رعيتها»^(١)، فالرجل راع في بيته هو، لكن المرأة راعية في بيت زوجها، فهو بيت زوجها حتى ولو كان ملك العقار في اسمها، وهذا لا ينافي ما ثبت في القرآن الكريم من نسبة البيت للمرأة، فهي نسبة استقرار وبقاء، قال تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، فهي ستخرج منه بعد انتهاء العدة، لكنه سماه بيتها لشدة التصاقها به ومكوثها فيه.

□ قال الزمخشري: «﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ حتى تنقضي عدتهنَّ ﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ من مساكنهنَّ التي يسكنها قبل العدة، وهي بيوت الأزواج، وأضيفت إليهنَّ لاختصاصها بهنَّ من حيث السكنى»^(٢).

وهذا ظاهر وعليه تحمل كل الآيات التي تنسب البيت إلى المرأة كقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

□ قال ابن عاشور: «وإضافة البيوت إليهن لأنهن ساكنات بها، أسكنهن رسول الله ﷺ فكانت بيوت النبي ﷺ يميز بعضها عن بعض بالإضافة إلى ساكنة البيت، يقولون: حجرة عائشة، وبيت حفصة، فهذه الإضافة كالإضافة إلى ضمير المطلقات في قوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]. وذلك أن زوج الرجل هي ربة بيته، والعرب تدعو الزوجة البيت، ولا يقتضي ذلك أنها ملك لهن لأن البيوت بناها النبي ﷺ تباعا تبعا لبناء المسجد، ولذلك لما توفيت الأزواج كلهن أدخلت ساحة بيوتهن إلى المسجد في التوسعة التي وسعها الخليفة الوليد بن عبد الملك في إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة ولم يعط عوضا لورثتهن»^(٣).

(١) رواه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

(٢) «تفسير الزمخشري» (٥٥٤/٤).

(٣) «التحرير والتنوير» (١١/٢٢).

وبما أنه صاحب البيت فمن حقه أن يدعو من يشاء إلى بيته بخلاف الزوجة التي لا يجوز لها أن تدخل بيت زوجها من يكره، كما قال ﷺ في خطبة الوداع: «ولا يُدخلن بيوتكم أحدًا تكرهونه»، بل منعها من أن توطئ فراش زوجها غيره بغير إذنه: «ولا يوطئن فرشكم أحدًا غيركم»^(١).

وحفظًا لكرامة هذا الخليفة في مملكته الصغيرة، سن الإسلام الكثير من الشرائع التي تحفظ عليه هيئته ومكانته، ومن ذلك أنه لا يجوز لأحد أن يؤم الرجل في بيته إلا بإذنه، حتى وإن كان أعلم وأحق بالإمامة منه، ولا أن يجلس في المكان المخصص له، قال ﷺ: «لا يؤمُّ الرجل في سلطانه ولا يجلس على تكريمته إلا بإذنه»^(٢)، والمقصود بسلطانه أي بيته، وهي تسمية مؤكدة للمعنى الذي نتحدث عنه، فالرجل سلطان في بيته ولا يجوز لأحد أن يعتدي على مكانته بأن يتقدمه للصلاة ولا أن يجلس في مقعده إلا بإذنه.

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

(٢) رواه مسلم (٦٧٣).

الخليفة مع أبنائه

وتكاملا مع مبدأ الخليفة، جعل الإسلام للأب على وجه الخصوص حق الطاعة على أبنائه، قال عليه السلام لعبد الله بن عمرو بن العاص: «أطع أباك ما دام حيا»^(١)، وإذا كانت طاعة الأبوين واجبة فإن مردها إلى الأب لأن المرأة مأمورة هي الأخرى بطاعته كزوج.

□ قال القرافي في كتابه «الفروق»: «إن رجلا قال للإمام مالك رحمته الله تعالى: إن والدي في بلد السودان وقد كتب إلي أن أقدم عليه، وأمي تمنعني من ذلك، فقال له الإمام مالك: أطع أباك ولا تعص أمك»^(٢).

فأمره بطاعة الأب، مع اجتهاده في أن لا يعصي أمه فإذا عرفت هذا اتسقت لديك الهرمية الأسرية وظهرت لك مكانة الرجل وعرفت أنه في بيته خليفة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولذلك قال تعالى مخاطبا الرجل بأصل الخطاب: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾^(١٣٢) [طه]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

كما جعل الله للأب في مال ابنه حقا مخصوصا.

(١) حسن: رواه أحمد (٩٦/١١)، وابن أبي شيبة (٢٩١/١٥)، والنسائي في «خصائص علي» (١٤٦)، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٢) «الفروق» (١٤٣/١).

□ قال السعدي في «تفسيره» عند قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، قال: «أي: بيوت أولادكم، وهذا موافق للحديث الثابت عن رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «أنت ومالك لأبيك»^(١)، والحديث الآخر: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم»^(٢)؛ ولذلك فإن المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾: «بيت الإنسان نفسه، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل، الذي ينزه عنه كلام الله، ولأنه نفى الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم من هؤلاء المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه فليس فيه أدنى توهم»^(٣).

إن استجابة أفراد الأسرة إلى قيادة الأب، يعد ركيزة أساسية في مفهوم الأسرة الذي أقامه الإسلام، إنها بذلك تكون كيانا واحدا وإن ظهر في أشخاص مختلفين، إنها دولة مصغرة يرأسها الأب ويوجهها إلى تحقيق مصالحها عبر التوسع المادي والبشري والذي يجعل هذا الخليفة يعيش مراحل في آخر عمره محاطا بالأبناء والأحفاد مستمتعا بهذا الدفء العائلي والمهابة الاجتماعية، قال تعالى مشيرا لنعمة الأبناء والأحفاد: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢) [النحل].

وإذا علمنا أن الأسرة تتكون من الأب والزوجات والأبناء، وجدنا أن الأبناء لا يتصفون بما يرشدهم إلى الصواب بسبب ضعف العقل، ووجدنا النساء يشتركون مع الأطفال في شدة تأثير العاطفة وفي استجابتهم

(١) صحيح: رواه أحمد (٥٠٣/١١)، وأبو داود (٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢٢٩٢)،

وصححه الشيخ الألباني، والشيخ شعيب الأرنؤوط في «المسند».

(٢) صحيح: وهو بعض روايات الحديث السابق.

(٣) «تفسير السعدي» (٥٧٥).

لضغوط الأبناء وفي نقص العقل، فبان لنا أهلية الأب لقيادة الأسرة
لثلاثة أسباب :

- ١ - كمال عقله عن الزوجات والأطفال .
- ٢ - شدة حرصه على مصلحتهم لمكانتهم عنده .
- ٣ - زيادة الخبرة في الحياة وحسن التقدير .

إذن : فالحالة الوحيدة التي نضمن فيها حسن تصرف الجميع، حين
نضمن طاعتهم للأعقل وهو الأب، فإذا فقدت الطاعة أصبحت عقول
الأطفال وأمزجة النساء هي التي تتحكم في مصائر الأسر حتى يعم ذلك
المجتمع، فيتحول إلى مجتمع مسارع في اللهو والكماليات بسبب
سيطرة عقول النساء والأطفال على القرار داخل الأسرة، وهذا أول
الهوان في المجتمع .





طاعة أم عبودية؟



ما بالنّا حين نتحدث عن طاعة الزوج يتحول الأمر إلى تنفير من العبودية، ويكون السؤال هل تريدون أن ترجعوا بالمرأة إلى زمن الإماء والجواري؟

إن الطاعة منظومة إدارية نجدها في كل نظام يجمع بين شخصين يعملان من أجل هدف واحد، وذلك لأن كل إنسان يختلف عن الآخر في رؤيته للأمور وطريقة تفكيره ولائحة أولوياته، وبالتالي فإن تزامن المصلحة بينهما يجعل كل طرف يحرص على مصلحته الخاصة، فيحصل التنازع، ولا يمكن تجاوز هذا التنازع إلا بوجود نظام يضمن إنهاء الخلاف، وهو ما يمكن أن يكون بالتصويت في المؤسسات التي فيها عدد فردي، وبانتخاب رئيس في مؤسسة فيها عدد زوجي.

فبدل أن ندخل في دوامة النقاش التي تؤول في كثير من الأحيان إلى دفاع مستميت عن الرأي يتحول إلى شحناء وبغضاء ومراء، يضع الأخصائيون في الأنظمة الإدارية لوائح واضحة تبين صلاحيات كل طرف من الشركاء، وبالتالي فإن هذا النظام لم يوضع ليستبعد أحدهما الآخر بقدر ما وضع ليحل الخلاف ويحفظ الأسرة من التصدع الذي يتولد على التنازع الناشئ عن الجدل الناشئ عن الحوار الناشئ عن الرغبة في اتخاذ قرار يراعي مصالح أحد الطرفين.

إن هذه الطاعة هي عملة اجتماعية يناولها كل شخص إلى الذي

فوقه، فعلى كل أمر أمر أعلى منه، وعلى كل رأس رأس، وعلى كل مدير مدير، إلى أن ينتظم المجتمع كله في سلسلة الطاعة التي تشكل بناء المجتمع المتساخر كما أراده الله ﴿لِتَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

إن هذا الزوج الذي أمرك الله بطاعته، قد أمره هو أيضا بطاعة أبيه، وهو أيضا ملزم بطاعة مديره في العمل، ولا يعتبر أي من ذلك عبودية.

فإذا كنا لا نعتبر طاعة الابن لأبيه عبودية، ولا طاعة الموظف لمديره عبودية، ولا طاعة العسكري للضابط عبودية، ولا طاعة اللاعب للمدرب عبودية، فلماذا نريد فقط أن ننزع الطاعة عن الزوجة لزوجها والله يقول: ﴿فَالصَّالِحَتُ قَنِينَتُ﴾ [النساء: ٣٤]، أي مطيعات لأزواجهن، ويقول في نفس الآية: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤]؟

ولكن من حقه أن تسألني لماذا أمرتني يا رب بطاعته، فيجيبك القرآن: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]؛ فما دام قد فضل بخصائص تؤهله للقوامة، وما دام هو المنفق، فلن تجدي حرجا في طاعته، خصوصا حين تعلمين أنه عليك حريص وفي مصالحك يشقى.



القوامة أو التفاهم

لماذا كان مبدأ الطاعة تجليا لمظهر الاستخلاف؟ ولماذا لا تكون العلاقة بين الزوجين مبنية على التفاهم بدل الطاعة؟ إن ما نقوم به الآن في هذا الكتاب ليس تنظيرا بالمعنى العام للتنظير، وإنما هو تفسير وتعليل لما جاء عن الله ﷻ، إنها محاولة لإيجاد إطار مفاهيمي يلم شتات الموضوع من خلال مبدأ الخليفة وسكنه، فلذلك لسنا هنا في مقام الافتراض، لكننا سنجيب عن هذا الاعتراض، ونوضح كيف يستحيل إقامة الحياة الأسرية على مبدأ التوافق الفكري والتفاهم بين رجل وامرأة.

يجب أن نفهم أولا أن التوافق الفكري غير التوافق التفكيري، فمهما كانت المرأة موافقة للرجل في أفكاره ومكافئة له في المستوى المعرفي، فإنها تختلف عنه تماما في طريقة التفكير وفقا لما أثبتته الفروق السيكلوجية بين المرأة والرجل والتي تظهر بشكل جلي في آلية العقل في التعامل مع المشاكل والمواقف.

إن وجود تفاهم بين شخصين يفكران بطريقة مختلفة هو شيء صعب بل مستحيل، لأنهما يتكلمان على مستوى العقل بلغتين مختلفتين، ويمكن أن ترجع لما كتبه علماء النفس في هذا المجال مثل ما كتبه الأستاذ طارق النعيمي في كتابه الماتع سايكولوجية الرجل والمرأة لتدرك أنك أمام طريقتين مختلفتين جذريا في التعامل مع المواقف.

إن نسبة التيسيترون المختلفة بين الرجل والمرأة والمسؤولة عن اتخاذ الكثير من المواقف تتحكم في كثير من القرارات التي سيتخذها الرجل والتي سيبنى موقفه فيها بمقاييسه الخاصة والتي تخضع لطبيعته ولمستوى التسترون الذي يدفعه للصرامة والمخاطرة والمغامرة وغيرها من السلوكيات، أي إننا أمام شخصين لا يمكنهما الاتفاق لأنهما لا يخطوان نفس الخطوات في طريقة إيجاد الحلول.

لو وضعنا عالم رياضيات وشاعرا وعسكريا في مكان واحد، فإن قراراتهم ستختلف جذريا لاختلاف طرق التفكير التي سينتهجها كل واحد منهم، فالشاعر له طريقته التخيلية، والرياضي له طريقته التحليلية والعسكري له طريقته البراغمية، وكل الطرق تناسب مجالها، ولذلك فإن احتمال اتفاقهما هو احتمال ضئيل جدا، وهو بالضبط ما حصل للرجل والمرأة، لأنهما يملكان طريقتين مختلفتين للتفكير.

لهذا فإننا نجد القرآن الكريم قد وضع حدا لهذا الخلاف في كلمتين ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]. أي في مرحلة اتخاذ القرار وهي مرحلة يسبقها في العادة الحوار والمشورة وتبادل الآراء، لكن الأسرة التي تعيش بمفهوم القوامة لا تشعر بأي تشنج أو تجاذب لأن كلا الطرفين مدركين لحقيقة أنهما لن يختلفا في الأخير، لأن القرار في النهاية قرار الرجل، وبذلك فإن المرأة لن تشعر بأي احتقار أو انتقاص أو ظلم، فهي مسلمة بفكرة القوامة ومقتنعة بها إلى النخاع. إن التفاهم بين شخصين يحتاج إلى أن تكون دوائر التفاهم الخمس مشتركة بينهم، وكلما تباينت هذه الدوائر كلما زاد الاختلاف، وهذه الدوائر الخمس هي:

دائرة الأولويات: فأولويات الرجل مختلفة عن أولويات المرأة في اتخاذ القرارات، والمصالح التي يراعيها الرجل تختلف عن المصالح

التي تراعيها المرأة، وهكذا تكون قراراتهما مختلفة لاختلاف دائرة الأولويات، فإذا كان الرجل يفكر في معادلة الكلفة والهدف، وكيف أصل إلى تحقيق المقصد بأقل جهد، فإن أولويات المرأة تتداخل فيها الكثير من الاعتبارات الاجتماعية والعاطفية والنفسية.

دائرة الاهتمامات: ومعلوم أن اهتمامات الرجال غير اهتمامات النساء، فإذا جلس الرجال في مجلس تحدثوا بغير ما سيتحدث به النساء في مجالسهن، وهذا الفرق الكبير يجعل التفاهم بين شخصين باهتمامين مختلفين أمرا في غاية الصعوبة.

آلية التفكير: وهنا يظهر الفرق الكبير في طريقة تفكير الرجل وطريقة تفكير المرأة فالرجل الذي يعمل عقله بالطريقة البرغماتية سيبحث عن أقرب الطرق للوصول إلى الهدف، بينما سيشتغل عقل المرأة باعتبارات تنتقل فيها بين العاطفة والمشاعر والرغبة في إرضاء الطفل وماذا سيقول الجيران.

لغة التخاطب: حيث تستخدم المرأة لغة عاطفية مشاعرية فيها الكثير من العبارات والصفات، بينما يميل الرجل إلى لغة عقلانية مختصرة، وهو ما يجعل النقاش بينهما كالنقاش بين صيني وإفريقي، لا يستطيع أحدهما أن يوصل فكرته إلى الآخر، وهذا ما يجعل الرجل يحتد في نقاشه مع المرأة ويشعر بصداع في رأسه، صداع سببه الطريقة اللوية التي يشتغل بها عقل المرأة في مقابل طريقة الصناديق التي يشتغل بها عقل الرجل، فيجد نفسه في أزمة تعبير خائفة، ويجد العبارات تنحبس في لسانه حين يشعر بالعجز عن الوصول إلى تناغم في النقاش بينه وبين المرأة.

إنها إشكالية لغة التخاطب المختلفة بين الرجل والمرأة، وهي المسؤولة عن هذه الحدة التي تعترى هذا النقاش في كثير من الأحيان.

رؤية الأمور: إن الرجل يرى الأمور بمنطق المصلحة والربح والخسارة، بينما ترى المرأة الأمور بمنطق العاطفة والمشاعر، الرجل يقرأ السطور والمرأة تقرأ ما بين السطور، وفي كثير من الأحيان لا تقرأ السطور أصلاً.

لا تستغرب حين تحكي لك زوجتك عن تصرفات أختك وإيماءاتها ونظراتها وإشاراتها، فهي ترى ذلك فعلاً، وأنت لا تراه فعلاً، إنها إشكالية عميقة تجعلنا نرى الصورة الكبيرة فقط، بينما ترى المرأة أدق تفاصيل التفاصيل.

إن محاولة تسيير الأسرة بالتفاهم بين شخصين يختلفان كل هذا الاختلاف هي كمن يريد من لاعب كرة سلة أن يلعب مع لاعب كرة المضرب، ويتفاهما في اللعب، إنهما يتصرفان بمنطقتين مختلفتين، وهذا ما سيجعل التفاهم بينهما في اللعبة شبه مستحيل.

إننا حين نطالب الزوجين بالتفاهم في كل قرار يتخذه مع ما بينهما من الاختلاف، فإننا نشعل في الأسرة فتيل خلاف لا ينطفئ، ونحول أبسط القرارات إلى معادلة صعبة تثور فيها الحزازات النفسية ومحاولات كل طرف أن يثبت صوابية قراره.

لذلك فإن منظومة القوامية تجعل الزوج قائداً في بيته، كي نضمن بنية إدارية تنهي الخلافات وتوصل إلى القرار النهائي في خطوات بسيطة.





القوامة والتقويم



إن العقل الذي وزع بين طبقات الأسرة الثلاث، الزوج والزوجة والأبناء، يجعلنا نقنتع بطريق الاستدلال العقلي أن الرجل هو أولى هؤلاء بالقيادة، كيف ذلك؟

الأطفال لم يكتمل عقلهم بعد، والزوجات عقلهن ممزوج بالعاطفة متأثر باختلافات المزاج، بقي عقل الرجل قد سلم من ضعف الطفولة ومن تأثير العاطفة، فكان هو الأولى بالقيادة لاكتمال عقله بالنظر إلى عقول من معه.

صحيح أنه قد يضعف عقل الرجل وقد تتفوق عليه المرأة أحيانا، لكن يبقى ذلك استثناء لا يمكن أن تبنى عليه منظومة الزواج، ويبقى فوق ذلك أن الصلاحيات قد منحت له بالنظر إلى أنه هو الذي أسس هذه الأسرة وهو الذي مول هذا المشروع وهو الذي يتحمل مسؤوليته الشرعية والقانونية، فكان من الظلم سلب القرار منه وهو المؤسس والممول والمسؤول.

وإذ أعطاه الله سلطة القوامة فقد أعطاه معها سلطة التقويم، وهي الواردة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ شُرُوهٖ﴾ [النساء: ٣٤]، بينما لم يجعل لها هي إن خافت من زوجها النشوز أو الإعراض إلا أن تصلح ما بينها وبينه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ [النساء: ١٢٨].

إن غياب سلطة التقويم لدى الزوج يفقد المنظومة لائحة الإجراءات العقابية التي هي ضرورية في كل نظام كي نضمن عدم بقاءه خاضعا للتقلبات العاطفية والمزاجية، وهو ما أكد عليه القرآن وأمر باتخاذ إجراءات صارمة في لحظة خوف النشوز، أي قبل أن يستفحل النشوز.

إن ضرب المؤمن عدوان لا يبيحه الإسلام إلا لمصلحة راجحة، ولذلك وضع الحدود التي تبيح ضرب الذي يعتدي على غيره، فيجلد ثمانين جلدة إن قذف عرض أخيه مثلاً، ولن نجد العقل يرفض هذا المبدأ لأننا ندرك طبيعة الإنسان التي تتمرد إن لم تجد ما يقومها.

لذلك فإن سلطة التقويم للرجل هي صمام أمان يضمن ثبات المنظومة الأسرية وعدم تزعزعها مع الزمن، خصوصاً حين ندرك طبيعة المرأة وطبيعة ما يعتريها من ظروف مزاجية وعاطفية.



قائد لا طاغية

إن التكامل الذي بنته الشريعة الإسلامية يمكن مشاهدته ضمن المعلمين التاليين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ ذُوقَهُمْ فَعَضُّوهُمْ وَأَوْجَرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَصْرِبُوهُمْ﴾ [النساء: ٣٤]، وبين قوله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله»^(١).

إنه يعطيك السلطة ويأمرك بالإحسان، يعطيك القيادة ويضع أمامك النموذج المحمدي، يمكنك من المرأة ويوصيك بها خيرا. وبهذا نعلم أن القوامة متعارضة مع الطغيان، لأن الطاغية قد تجاوز الحد إلى البغي المشار إليه في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

يمكننا أن نترجم مفهوم القوامة إلى المفهوم الحديث في الإدارة: القيادة، إنه ممارسة حانية للسلطة دون أن يشعر من معك أنك تتأمر عليهم، إنها مجموعة من المهارات التي تجعل الجميع يحبون قيادتك، ويفخرون بك، ويلجؤون إليك، فقد أشعرتهم بأهميتهم وأخذت آراءهم واستمعت إليهم، ثم قررت ما فيه المصلحة لهم، وهذا ما ينبغي أن يسعى الزوج ليصل إليه.

حين أشارت أم سلمة على رسول الله ﷺ بحلق رأسه، أخذ برأيها،

(١) صحيح: وقد تقدم.

فهي تشعر بهذه الأريحية التي تجعلها تتدخل في شأن من شؤون الأمة وتشير عليه بما تراه، إنها تشعر بأن القائد في حاجة إلى رأيها فتمده به في أسلوب لطيف، ويأخذ هو به صلوات ربي وسلامه عليه، ليعلمنا كيف يكون الرجل داخل بيته، وكيف يمكن أن تكون نجاة الأمة كلها على يد امرأة.





القوامة سر استقرار الأسرة



الأسرة السليمة هي التي تكون فيها القوامة بيد الأب، وبالتالي يكون هرم السلطة في البيت بهذا الترتيب: الأب ثم الأم ثم في أسفل الهرم الأبناء، أي يكون الأب أعلى سلطة في البيت، وتكون الأم بمثابة السلطة التنفيذية أو المدير التنفيذي المكلف بتسيير الأسرة، حيث تستمد الأم سلطتها من هيبة الأب الممزوجة بالحب والحرص، هذه الهيبة التي تبنيها في نفوس أبنائها بما تظهره من احترام وتقدير للأب ورأيه ومكانته، وتربي في أبنائها الخوف من الأب، فيجتمع في الأب الخوف والحب، ويكون لها هي الحنان والحب، وهكذا يعتدل ميزان الأسرة بالمحبة والخوف، وهما المادتان المحفزتان لنفسية الإنسان وبهما يتحرك نحو هدفه باعتدال، أما إذا غلب أحد الجانبين في الأسرة فسيختل نظامها وسيكون أبنائها بين حب مفرط يؤدي إلى الدلال والخمول، أو خوف شديد يؤدي إلى القلق والاضطراب.

الهرم السليم



حين لا يفهم الزوجان هذا الهرم يحصل بينهما تنازع في بداية الزواج على من يكون في قمته، ومن يكون صاحب الكلمة الأولى في البيت، وبحكم عقلانية الرجل فإنه يتنازل إبقاء على الأسرة وحفاظا على الزواج في كثير من الأحيان، وفي أحيان أخرى لا يحصل هذا الصراع أصلا، إذ تعود الرجل في بعض المجتمعات على أن يسلم للمرأة الأمر والنهي وتكون لها السلطة الأعلى في البيت.

إن سيطرة المرأة على الأسرة تقلب الهرم رأسا على عقب، كيف ذلك؟

رأينا في الحالة الطبيعية أن الأب يكون في أعلى الهرم والمرأة في وسطه والأبناء في أسفله، أي أن القرار الذي يتخذه الأب تنفذه المرأة ويلتزم به الأبناء، أما حين تسيطر المرأة على الزوج فإن الصورة تنقلب تماما بحيث لا تكون المرأة هي التي في أعلى الهرم الأسري، بل إن عاطفة المرأة تجعل موقفها ضعيفا أمام الأبناء، فتساق لرغباتهم شيئا فشيئا، ويتمرس الأبناء على أساليب الضغط على أمهم لتلبية رغباتهم، فيصبح الهرم هكذا: الأبناء في قمة الهرم ثم الأم في وسطه ثم الأب في أسفله، وتصبح الأسرة كلها خاضعة لرغبات الأبناء، ويفقد الأب سلطته التي كان يكتسبها بسبب تلك الهيبة التي كانت تحيط به، خصوصا حين يرى أبناءه أن كلمته لا تنفذ، وهنا ينسحب الأب من الأسرة شيئا فشيئا ويصبح مكانه المقهى.





ال خليفة ورغبته في التوسع



إن من لوازم الخلافة التي جبل عليها آدم، رغبته الدائمة في التوسع، وحرصه الممتامي على التملك، حتى وإن زاد ذلك على ما يحتاج إليه.

وهذا ما يدفع الإنسان إلى ظلم أخيه الإنسان والتعدي على حقوقه، فلو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، كما صح في الحديث ^(١)، ولولا الروادع الشرعية والقانونية لمال الناس بعضهم على بعض.

لذلك راعى الشرع رغبته في التوسع وضبطها بضوابط، فجعل له في المال حقوقاً وحدوداً، وحد له من النساء أربعاً ولا يزيد، وأباح له أن يملك من الإماء ما شاء، بينما لم تكن المرأة لتحرص على هذا التوسع في الحياة، وفي مقابل ذلك تحرص على التزين والتجمل بامتلاك المجوهرات والذهب بدل المزارع والأراضي والأنعام التي هي متعة الرجل.

إن رغبة التوسع تفسرها الآية الكريمة ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤] وإذا كانت المرأة تشارك الرجل في حب البنين فإن عددها فيهم محصور بقدرتها

(١) رواه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩).

على الولادة، وإذا كانت تشاركه في حب الذهب والفضة، فإن حصولها عليهما محدود بقدرتها المحدودة على الكسب، بينما يختص الرجل بأنواع من الشهوات لا تعير المرأة لها كبير اهتمام، كالخيل المسومة والأنعام والحرث، ولذلك تجد الرجال يبالغون في الأنعام ويستكثرون منها مع ما فيها من الكلفة والعناء ولا تجد ذلك في النساء عادة.

إن هذه الرغبة في التوسع تفسر لنا كثيرا من خصائص الخليفة وما تولده لديه هذه الرغبة من صراعات ورغبات تكون سببا لكثير من سفك الدماء الذي خشيته الملائكة ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ومعلوم أن الذي يسفك الدماء هو الرجل وليس المرأة.

إن فهم هذه الطبيعة سيساعدنا كثيرا في فهم مبدأ القوامة وفسحة التعدد التي جعلها الله استجابة لرغبته الدائمة في التوسع، وهو ما لم تحتج إليه المرأة لا في هذه الدار ولا في الجنة، حيث أعطي الرجل عددا من الحور العين بحسب مكانته، ولم تعط هي غير زوجها الذي عاشت معه.

وهذا مدخل من مداخل فهم كثير من الأحكام الشرعية التي فاضلت بين الرجل والمرأة بناء على رغبة الرجل في التوسع وتوقه إلى مزيد من التملك، وهو مدخل لفهم السلوك الطبيعي للرجل والمرأة في المال، فبينما يميل الرجل إلى المغامرة واقتحام المخاطر طمعا في الربح الذي هو صورة من صور التوسع، تميل المرأة إلى تحقيق الأمان والابتعاد عن المخاطر، لذلك يختلف سلوكهما المالي اختلافا كبيرا، وعليه يظهر فرق كبير بين الأسرة التي يسيطر الرجل على قرارها المالي، وبين الأسرة التي يكون القرار المالي فيها بيد المرأة، ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح في نمط العيش وطبيعة عمل الرجل، بل يمتد ذلك ليشمل

المجتمع كله، حيث يسود في كل مجتمع نمط أسري متشابه، فيؤول اقتصاد المجتمع الذي يسوده الرجال إلى غير ما يؤول إليه اقتصاد المجتمع الذي تسوده النساء، وهذا يحيلنا إلى أثر من آثار قوله ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»^(١).



(١) صحيح: وقد تقدم.

الخليفة والانغماس في طلب المعاش

لقد ركب الله في الرجل غريزة الكسب والانغماس في طلب المعاش، ولذلك عاش الرجل بهذه الغريزة متنقلا بين مجالات العيش والضرب في الأرض للجهد وأنواع التجارات، وسخر له المال يقوم به حياته ويدير به شؤون خلافته، لذلك كان المال قوام الحياة، وكان مساره أن يناله الرجل ليسلمه للمرأة والأطفال، وهذا سر كفاية الله المرأة وأمره إياها بالقرار في البيت ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فكما أمر بذلك نساء النبي ﷺ أمر نساء الأمة لأنهن أحق بهذا وأولى، ولأن الخطر عليهن أشد، خصوصا حين يفسد المجتمع وتسوء أخلاق الرجال، فيكون في خروجهن للتكسب والعمل مفسد كثيرة على المرأة نفسها وعلى أبنائها.

ولذلك أودع الله في الرجل غريزتين، غريزة التكسب، وغريزة الإنفاق على الأسرة والأبناء، فلا نجد الرجل ينفق على نفسه من ماله إلا النزر اليسير، وأول ثروة يجمعها الرجل إنما يقدمها مهرا لامرأة. إذا فهمنا هذا أدركنا سر القوام المالية التي جعلها الله للرجل وكفى بها المرأة مؤونة التكسب، كي لا يضطرها إلى التعرض لما يمكن أن يؤذيها في دينها أو عرضها، ولذلك حين أمرها بالقرار هيا لها الرجل ليكون في حال إنفاق دائم عليها، سواء كان أبا أو زوجا أو ابنا أو أخا، وجعل ذلك جبلة فيه، بل غاية فطرية ومآلا طبيعيا لما يكسبه من مال،

فالرجل يعمل ويكد بل ويستدين من أجل أسرته، وأساس أسرته زوجته، فتعب الوظيفة له، وثمره الوظيفة لها.

إن الأبوة التي تربط بين وبين أبيك، فتجعله عطوفا حريصا ساعيا منفقا، هي في جزء منها رابطة تربطه بأمك، فهو زوج المرأة التي هي أمك، أي أن العلاقة بينكما تمر عبر هذه المرأة، وهذا ملحظ لطيف نُزيل به ذلك الشك الذي غرسه الإعلام في الفتيات تجاه الرجل، فتجدها ترفض الزواج وتتمسك بالعمل لأنها لا تثق بالزوج.

فحين تفهم أن هناك خيط أبوة يربط بينها وبين هذا الزوج عبر أطفالها منه، وأن حرصه على أطفاله بغريزة الأبوة يمر عبر حرصه عليها، فهي أم الأطفال الذي هو أبوهم، وحرصه عليها هو من نفس مادة حرصه عليهم، إذا فهمت ذلك اطمأنت نفسها واستطاعت أن ترخي من يدها حبل الوظيفة الذي تتمسك به في عناء، وتتعلق به تعلقا يضيع عليها دينها في كثير من الحالات.

إن الانغماس في طلب المعاش صفة أساسية من صفات الخليفة، لأن به يوفر لزوجته ما تحتاج إليه ليتحقق السكن، من هنا كانت القوامة المالية ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، أساس العلاقة الزوجية، قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤]، ومن هنا كان عمل المرأة مناقضا لأصل الدور الذي خلقت له، فهي وإن اكتسبت المال لا تحتاج لإنفاقه على أحد، ولا على نفسها، فنفقة نفسها على زوجها، ووجود المال في يدها ترف لا يترتب عليه حق.

هذا هو أصل النظرة الإسلامية لموضوع عمل المرأة وجهاد المرأة وتنصيب المرأة حاكمة أو قاضية، إذ كل ذلك مخالف للهدف الذي من أجله خلقت، وهو في المنظومة الإسلامية لا معنى له إلا المعاندة من أجل إثبات المساواة، والمساواة منتفية بأصل الخلقة.

إن العلاقة الزوجية تتمثل في رباطين وثيقين، رباط الزوجية ورباط الوالدية، وهذا الرباط أقوى من الذي قبله، لأنه مرتبط بغريزة الخلود التي هي من أهم خصائص الخليفة، فوجوده مرتبط باستمراره، واستمراره مرتبط بأبنائه، وأبناؤه مرتبطون بأهمهم، فهذا هو السر الذي ركب في الزوج لينفق على نفسه الكبيرة وأناه الواسعة التي تتجلى في زوجته وأطفاله، بالإضافة إلى ما غرز فيه خالقه من المودة والرحمة التي هي جعل من الله، تماما كجعله الشفقة بين الآباء والأبناء، كل ذلك من فعل الله وتقديره ليلتحم الناس بعضهم ببعض.

هذه الروابط هي روابط غريزية، أي أنها لا تتأثر كثيرا بالمستوى الخلقي أو الديني، وإن كان قد يزيدها الدين متانة وتزيدها الأخلاق جمالا، إلا أن ارتباطها بالغريزة يعطينا ذلك البعد التكاملي الفطري، الذي قامت به حياة البشرية حتى في أشد فترات الجهل حلقة.

إن غريزة التكسب التي جبل عليها الرجل هي أساس ثقتنا في الزواج كعلاقة تستمد طاقتها من التركيبة الغرائزية التي فطر الله الناس عليها، يكفي إذن أن نعيد الفطرة إلى طبيعتها فيعود للمجتمع تماسكه.





بِمَ فَضْلَ اللَّهِ تَعَالَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ؟



إذا كان الرجل مخلوقاً لدور مختلف عن المرأة فإن مسألة تفضيله معللة، أي بما أنه سيقوم بأدوار مختلفة عن المرأة فإنه لا بد أن يعطى من القدرات ما يؤهله لذلك الدور، وهذا أساس الحكمة الإلهية في هذا الترتيب الذي رتب الله به الأدوار في هذه الحياة.

ولكي نجيب عن سؤال التفاضل لا بد من تقرير الميزان الذي عليه سنقيس هذا التفاضل، وإلا كان قياسنا لغوا لا عبرة فيه.

إن أساس التكريم هو الكفاءة في القيام بدور الاستخلاف الذي هو مظهر العبودية، فمن يكون له الدور الأهم تكون له الأفضلية في الاستخلاف، والتقدم في المرتبة، وعليه تكون أفضليته مقاسة بمدى تحقيقه لهذا الدور، بحسب الكفاءات والاستعدادات التي أودعت فيه، ولا شك أن هذا الأمر متعلق بهذه الدار، بخلاف الآخرة التي لا فضل فيها إلا بالتقوى، وهو ما نسميه الخيرية.

فإذا كان أساس التكريم الاستخلاف، وإذا كان أساس الاستخلاف إعمار الأرض بإقامة الدين ونشر العلم وجهاد الكفار وقمع الباطل وفتح البلدان وبناء الدول وغير ذلك، فإن كفاءة الرجل في هذه الأدوار شبه حصرية، لا يقوم بذلك سواه، ليس لملكاته اكتسبها وإنما لخصائص أودعها الله فيه.

حين اختار الله طالوت ملكا، استنكرت بنو إسرائيل أن يكون له الملك عليهم، فقالوا ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]؛ فكان الجواب الذي به تطمئن نفوسهم المجبولة على عدم طاعة من هو أدنى مكانة ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، أي إن الله جعل له من الميزات ما يؤهله لهذا المنصب كونه مفضلا عليكم ببسطة في العلم وبسطة في الجسم، فالاصطفاء عليكم بما أعطاه هو ما جعله مستحقا لأن يكون ملكا عليكم، أي أن الاصطفاء أساس التفضيل، والتفضيل أساس التمكين، والتمكين أساس القوامة، فكما علل لبني إسرائيل أحقية طالوت بالملك عليهم، علل - بنفس الأسلوب - للمرأة قوامة الرجل عليها بعلتين: التفضيل: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤]؛ والإنفاق: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

□ ولهذا قال ابن كثير: «﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ أي: لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة؛ ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال وكذلك الملك الأعظم. فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قيما عليها»^(١).

□ وفي «تفسير الجلالين»: «﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي بتفضيله لهم عليهن بالعلم والعقل والولاية وغير ذلك ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾ عليهن ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْصَّالِحَاتُ﴾ منهن ﴿فَلَنَنْتِ﴾ مطيعات لأزواجهن»^(٢).

□ قال ابن جرير الطبري: «﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ يعني: بما فضل الله به الرجال على أزواجهم. وذلك تفضيل الله ﷻ إياهم عليهن، ولذلك

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/٢٩٢).

(٢) «تفسير الجلالين» ص (١٠٦).

صَارُوا قُؤَامًا عَلَيْهِنَ، نَافِذِي الْأَمْرِ عَلَيْهِنَ فِيمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مِنْ أُمُورِهِنَّ»^(١).

□ وقال السعدي: «تفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات؛ كالجهاد، والأعياد، والجُمع، وبما خصهم الله به من العقل، والرزانة، والصبر، والجلد الذي ليس للنساء مثله، وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات»^(٢).

هذا والتفاسير مجمعة على هذا المعنى الذي هو مكمل ضروري لفهم الاختلاف الجوهرى بين المرأة والرجل، فهما مختلفان، وبالتالي فهما غير متساويين، فإذا بطل التساوي فلا بد من التفاضل، وإذا كان التفاضل حاصلًا فإننا نستطيع أن ننظر إلى الرجل كمسؤول عن المرأة لنستنتج أن المسؤولية تشريف له أسبابه، فإذا هو أفضل مقامًا، وأكثر كلفة، وهو معد لذلك بما أعطاه الله من الصفات، فكلفه الله بالقوامة بعد أن أعطاه ما يستطيع به أن يكون قوامة.

فلولا التفضيل بالخلقة لما كان التمييز بالدرجة، ولولا التمييز بالدرجة ما كانت القوامة التي هي مسؤولية طرف على طرف، فإما أن يكون قد استحق هذه المسؤولية بميزات، أو أنه أعطي مسؤولية بلا مبرر، وهو ما يعتبر تحيزًا لا مبرر له، حاشا لله.

في الدنيا رتب الله العلاقة باختلاف الدرجات بين الناس ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًا، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ فاختلاف المعيشة بين الرجل والمرأة هو من

(١) «تفسير الطبري» (٦/٦٨٧).

(٢) «تفسير السعدي» (١٧٧).

هذا، ورفعها عليها درجة ﴿وَلِلرَّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ هو المبرر لهذا التساخر والتخادم الذي تؤمر فيه المرأة بطاعة الرجل سواء كان أبا أو زوجا، أي وليا على أمورها قواما على شؤونها.

لقد كان موضوع التفاضل محسوما في الشريعة الإسلامية، لا يناقش فيه أحد أصلا، حتى ظهرت هذه الهزيمة النفسية، وابتلي المسلمون بداء التبشير إرضاء للحضارة الغربية، فأصبح بينهم من ينكر التفاضل ويتلون فيه.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه «أعلام الموقعين» مبيِّنا بعض صور التفاضل بين الرجال والنساء:

١- في العقيقة.

«وأما العقيقة فأمر التفضيل فيها تابع لشرف الذكر وما ميّزه الله به على الأنثى، ولما كانت النعمة به على الوالد أتم، والسرور والفرحة به أكمل كان الشكران عليه أكثر؛ فإنه كلما كثرت النعمة كان شكرها أكثر».

٢- في الدية:

«وأما الدية، فلما كانت المرأة أنقص من الرجل والرجل أنفع منها ويسدُّ ما لا تُسدُّه من المناصب الدينية والولايات، وحفظ الثغور والجهاد وعمارة الأرض وعمل الصنائع التي لا تتم مصالح العالم إلا بها والذب عن الدين والدنيا لم تكن قيمتهما مع ذلك متساوية، وهي الدية. فإن دية الحرّ جارية مجرى قيمة العبد وغيره من الأموال، فاقتضت حكمة الشارع أن جعل قيمتها على النصف من قيمته لتفاوت ما بينهما».

٣- في الشهادة:

«وأما الشهادة فإنما جُعِلت المرأة فيها على النصف من الرجل؛

لحكمة أشار إليها العزيز الحكيم في كتابه، وهي أن المرأة ضعيفة العقل قليلة الضبط لما تحفظه. وقد فَضَّلَ الله الرجال على النساء في العقول والفهم والحفظ والتمييز، فلا تقوم المرأة في ذلك مقام الرجل. وفي منع قبول شهادتها بالكلية إضاعة لكثير من الحقوق وتعطيل لها، فكان من أحسن الأمور وألصقها بالعقول، أن ضُمَّ إليها في قبول الشهادة نظيرها لتذكُّرها إذا نسيت، فتقوم شهادة المرأتين مقام شهادة الرجل، ويقع من العلم أو الظن الغالب بشهادتهما ما يقع بشهادة الرجل الواحد.

٤ - في الميراث :

«وأما الميراث، فحكمة التفضيل فيه ظاهرة. فإن الذكر أحوج إلى المال من الأنثى، لأن الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ، والذكر أنفع للميت في حياته من الأنثى، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله بعد أن فَرَضَ الفَرَائِضَ وَفَاوَتْ بَيْنَ مَقَادِيرِهَا ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا﴾ [النساء: ١١]، وإذا كان الذكر أنفع من الأنثى وأحوج كان أحقَّ بالتفضيل»^(١).



(١) «إعلام الموقعين» (٣/ ٤١٩ - ٤٢٠).

لماذا لا نقول: إنهما متفاضلان؟

أي لماذا لا نقول إن الرجل ليس مفضلا على المرأة، لكنهما متفاضلان، أي أنه يفضلها في شيء وهي تفضله في شيء؟
إننا حين نحلل البعد العملي لهذا الكلام فإننا نجد به بلا جدوى، لأنه أولاً خالف نص القرآن الكريم الذي نص على أفضلية الرجل على المرأة عموماً ﴿يَمَّا فَصَلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، وثانياً لأنه لا ينبغي عليه شيء، فتفضيل الرجل على المرأة تبني عليه أحكام كثيرة من بينها القوامة والولاية والإرث والشهادة والدية والإمامة الكبرى والصغرى وغير ذلك من الأحكام، فحين نقول إن الرجل مفضل على المرأة فنحن نتسق تماماً مع النصوص والأحكام الشرعية.

وثالثاً فإن هذا الكلام إنما يقال اليوم استجابة للضغط العالمي في موضوع المرأة، وهو ضغط وراءه عقيدة، وما دامت هذه العقيدة مرفوضة عندنا، فإننا لسنا بحاجة إلى السعي في إرضاء الرأي العالمي حول المرأة، لأنها فكرة عاطفية لا طائل من ورائها.

□ جاء في «تفسير المنار» قال: «وما به الفضل قسمان: فطري وكسبي، فالفطري: هو أن مزاج الرجل أقوى وأكمل وأتم وأجمل، وإنكم لتجدون من الغرابة أن أقول: إن الرجل أجمل من المرأة، وإنما الجمال تابع لتمام الخلقة وكمالها، وما الإنسان في جسمه الحي إلا نوع من أنواع الحيوان، فنظام الخلقة فيها واحد، وإننا نرى ذكور جميع

الحيوانات أكمل وأجمل من إناثها، كما ترون في الديك والدجاجة، والكبش والنعجة، والأسد واللبؤة، ومن كمال خلقة الرجال وجمالها شعر اللحية والشاربين، ولذلك يعد الأجرد ناقص الخلقة، ويتمنى لو يجد دواء ينبت الشعر وإن كان ممن اعتادوا حلق اللحي، ويتبع قوة المزاج وكمال الخلقة قوة العقل، وصحة النظر في مبادئ الأمور وغاياتها، ومن أمثال الأطباء: العقل السليم في الجسم السليم. ويتبع ذلك الكمال في الأعمال الكسبية، فالرجال أقدر على الكسب والاختراع والتصرف في الأمور؛ أي: فلأجل هذا كانوا هم المكلفين أن ينفقوا على النساء، وأن يحموهن ويقوموا بأمر الرياسة العامة في مجتمع العشيرة التي يضمها المنزل؛ إذ لا بد في كل مجتمع من رئيس يرجع إليه في توحيد المصلحة العامة. انتهى بزيادة وإيضاح.

أقول: ويتبع هذه الرياسة جعل عقدة النكاح في أيدي الرجال هم الذين يبرمونها برضا النساء، وهم الذين يحلونها بالطلاق»^(١).

بقي أن نشير إلى أن هذا التفضيل للجنس لا يدل على تفضيل الفرد، فرب امرأة خير من كثير من الرجال، إلا أننا حين ننظر إلى الجنس فإننا نجد جنس الرجال أكمل من جنس النساء، على ما اقتضته الحكمة الإلهية التي تفسر بها الأحكام الشرعية، وهو ما صرح به رسول الله ﷺ حين قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربعة»^(٢).

(١) «تفسير المنار» (٥٧/٥).

(٢) صحيح: وقد تقدم.

هل يُنسبُ هذا التحيزُ لله ﷻ؟

إن التحيز أن يكلف الله فردا بمنصب مسؤولية دون أن يخصه بمؤهلات تؤهله لذلك المنصب، فهذا هو التحيز، أما تفضيل الرجل على المرأة فلا يعتبر تحيزا من وجوه:

○ أنه تفضيل بسبب تفاضل في الخلقة، أي أنه تفضيل له ما يبرره من تفاوت الاستعداد الذي يؤدي إلى اختلاف المسؤوليات، واتساق المسؤوليات مع المميزات.

○ أنه تفضيل بني عليه تكليف، فلو فضله دون تكليف، لما كان لهذا التفضيل أثر، ولو كلف الرجل دون أن يميزه بخصائص لكان تكليفا بدون استحقاق، وهو حينئذ تحيز لجنس على جنس دون أسباب حقيقية أدت إلى ذلك التفضيل.

□ قال ابن القيم في تفضيل الأوقات والأماكن: «وما فضل بعضها على بعض إلا لخصائص قامت بها اقتضت التخصيص وما خص سبحانه شيئا إلا بمخصص ولكنه قد يكون ظاهرا وقد يكون خفيا»^(١).

○ أنه عادة الله في خلقه، فهو فاضل بين جميع المخلوقات، بل فاضل حتى بين الأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وفاضل بين

(١) «إعلام الموقعين» (٢/٢٧٠).

الملائكة ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١]، ولو نظرت إلى جسدك لوجدت التفاضل حتى بين أعضائك، وهذا التفاضل وهو سبب التكامل، فالعقل أشرف الأعضاء والقلب قائدها وليس في ذلك انتقاص من الأعضاء الأخرى.

○ أنه ساوى بينهم في الأجر والمثوبة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية.

○ أنه أعطى المرأة تعويضا في الأجر مقابل الأعمال التي لا تستطيعها كالجهاد مثلا، فقد سئل **عليه الصلاة والسلام**: هل على النساء جهاد؟ قال: «نعم. جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة». أخرجه البخاري (١).

○ أن الاعتبار الأخرى متساو بينهما على قدر ما منحهما الله من مسؤوليات، فحساب الرجل على قدر ما مكن له، وحساب المرأة على قدر ما كلفت به.



(١) رواه البخاري (١٥٢٠)، واللفظ لابن ماجه (٢٩٠٢).

لَيْتِنَا كُنَّا رِجَالًا!!

لقد عالج القرآن الكريم هذه المشاعر التي يمكن أن تتولد عند المرأة حين ترى ما فضل الله به الرجل عليها في هذه الدار، خصوصا حين يتعلق الأمر بما يقرب من الله ﷻ من سائر العبادات والكلف، ولذلك اشتكت النساء من هذا التفضيل ورفعن أمرهن إلى رسول الله ﷺ، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢].

□ قال ابن جرير: «وذكر أن ذلك نزل في نساءٍ تمنين منازل الرجال، وأن يكون لهن ما لهم، فنهى الله عباده عن الأمانى الباطلة، وأمرهم أن يسألوه من فضله، إذ كانت الأمانى تورث أهلها الحسد والبغي بغير الحق»^(١).

وروي أن التي قالت ذلك أم سلمة رضي الله عنها؛ فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن أم سلمة أنها قالت: «يا رسول الله، يغزو الرجال ولا يغزو، ولنا نصف الميراث. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، وفي رواية أنها قالت: ليتنا كنا رجالا!»^(٢).

(١) «تفسير الطبري» (٦/٦٦٨).

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٤٤/٣٢٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/١٥٦)، والطبري في «تفسيره» (٩٢٤١)، وضعفه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند».

إن هذا التمني يخرج عن الأمنيات التي ينبغي للإنسان أن يحرص عليها من مرضاة الله وتحقيق النجاح في الحياة الدنيا والآخرة، فليس هو من باب ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، ولا من باب ﴿فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]؛ لأن أبواب الخيرات التي ينبغي أن يتجه إليها المرأة تختلف عن أبواب الخيرات التي ينبغي أن يتجه إليها الرجل، وعلى هذا يظهر لنا أثر الفرق بينهما في المؤهلات حيث انبنى عليه فرق في التكليف، وعلى هذا جاء في حديث في سنده مقال: «إن حسن تبعل إحداكن لزوجها يعدل ذلك كله»^(١).

هذا الحديث وإن كان ضعيفا من جهة السند إلا أن معناه صحيح تشهد له النصوص التي تثيب في الحسنة من كان سببا فيها، كقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ: صَاحِبَهُ الَّذِي يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالَّذِي يُجَهِّزُ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِي يَرْمِي بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

فالرجل الذي جاهد في سبيل الله قد قامت زوجته بحفظ ماله وولده ورعايتهم حتى يعود، فلا شك أنها شريكة له في الأجر، كما قال ﷺ «من جهز غازيا فقد غزا»^(٣) فهي ساهمت في تجهيزه وإعداده بما يسرت له من سبل الحفظ، وقد كان حسن تبعلها سببا مباشرا في استقرار بيته وقدرته على أداء فريضة الجهاد أو الحج... أو غير ذلك من الأعمال، فناسب أن يكون لها من الأجر نصيب على قدر ما هيأت ويسرت وأعانت.

(١) ضعيف: رواه البيهقي في «الشُّعَب» (٨٣٦٩)، وضعَّفه المحقق.

(٢) حسن: رواه أحمد - واللفظ له - (١٧٣٣٨)، وأبو داود (٢٥١٣)، والنسائي (٣٥٧٨) باختلاف يسير، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند».

(٣) رواه مسلم (١٨٩٥).

العقل الناقص، والذكاء الكامل

إن أساس تكليف الإنسان هو العقل، وحين كان تكليف الرجل أكبر كان لديه من العقل زيادة تؤهله للقيام بمهام الاستخلاف على زوجته وأسرته مع ما يتبع ذلك من مهام الاستخلاف التأسيسي السبعة. لو لم يقل الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن»^(١)، لكان لنا في شواهد الأدلة ما يشير إلى هذا الفرق الظاهر بين المرأة والرجل في العقل ولوازمه، وهو ما أثبتته العلم الحديث في الفروق السيكلوجية بين الرجل والمرأة سواء في حجم العقل أو في طريقة عمله أو في اختلاف وظائف شقيه.

ويتأكد هذا المعنى بشكل لا يشعر فيه المؤمن بأي حرج، بعد أن يسلم بأنه صادر عن الذي لا ينطق عن الهوى، حين يعلم أن العقل في لغة الشرع ليس محله الدماغ، بل القلب.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾

[الحج: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا

يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

(١) صحيح: وقد تقدم.

ولذلك وصف القرآن الكريم ما كادت أن تقدم عليه أم موسى بأنه فراغ في القلب .

قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا ۚ إِن كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠] .

□ قال الزمخشري: «﴿فَرِغًا﴾ صفرا من العقل . والمعنى: أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش . ونحوه قوله تعالى: ﴿ وَأَفْجَتْهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٣] أي جوف لا عقول فيها ومنه بيت حسان:

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوف نخب هواء

وذلك أن القلوب مراكز العقول . ألا ترى إلى قوله: ﴿ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦] ويدل عليه قراءة من قرأ: فرغا . وقرئ: قرعا، أي خاليا من قولهم: أعوذ بالله من صفر الإناء وقرع الفناء . وفرغا، من قولهم: دماؤهم بينهم فرغ، أي هدر، يعنى: بطل قلبها وذهب، وبقيت لا قلب لها من شدة ما ورد عليه^(١) .

إن الإشارة في هذه الآية تؤكد ما ورد في النصوص الأخرى مما تدل عليه اللغة العربية التي تميز بين العقل الذي هو قوة باطنة وبين الذكاء الذي تعبر عنه بالدهاء والمكر وغير ذلك من العبارات .

لقد أصبح فؤادها فارغا فكادت أن ترتكب ما هو ضد العقل ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ ، فلو أبدت بابنها موسى لعرضته للقتل، فلم يكن فراغ قلبها إلا حالة من التأثير العاطفي أعمتها عن التعقل، لولا أن تدخل اللطف الإلهي ليربط على قلبها، لا على عقلها .

إن وجود شخصين متساويين داخل الأسرة سيكون خطأ في التكوين

(١) «تفسير الزمخشري» (٥٦٣/٢) .

الهرمي، فالهرم لا يقبل قائدين، إذن لا بد أن يكون في أحدهما خفض طبيعي ليتقبل قيادة الأفضل منه، فما لم يشعر أحدهما بأفضلية الآخر لن يقبل قوامته عليه، ولن يكون لرأيه وقع في نفسه.

إذا علمت هذا فلن يبقى لديك تعارض بين الذكاء والعقل، فالذكاء محله الدماغ، وقد تفوق فيه المرأة الرجل، بل قد تفوقه في ملكات الدماغ الأخرى كالحفظ والتحليل وسرعة البديهة، فتكون كاملة الذكاء لكن نقص عقلها سيظهر لا محالة في أي مجال فيه عاطفة، بل حتى الرجل نفسه إذا وقع تحت تأثير العاطفة فإنها تعميه عن مقتضيات العقل، وعلى هذا قالوا: الحب يعمي ويصم، وعليه فيمكننا القول: إن زيادة عاطفة المرأة هو الذي أثر في نقص عقلها، ومن هنا صار نقص عقلها قوة في ذاته، وأكثر تحقيقاً لهدف الاستخلاف التكاملي.

فإذا رأيت امرأة متميزة في دراستها متفوقة على أقرانها من الذكور، فلا تغتر بذلك، فإنما يظهر النقص في المجالات التي تحتك فيها العاطفة بالعقل، هنالك يظهر القلب فارغاً من العقل حين تثور فيه عواصف حب أو كره أو غيرة أو شفقة.

لقد عوض الرجل هذا النقص، فكان هو عقلها الذي تنجو به من تقلبات مزاجها واختلاف رأيها وتردد أمرها، فهو إما أب حريص أو أخ شفيق أو زوج محب أو ابن وفي، أي أنه في جميع الحالات مستعد لتعويض ذلك النقص الحاصل في عقلها، بقوامته التي جبله الله عليها، فظهر بذلك كفاية عقل واحد لتسيير أسرة كاملة.



الفصل الثالث

حواء سكن الخليفة



﴿لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا﴾



□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لما أُسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشاً، فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصري من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها؛ فلما انتبه رآها فقال: من أنت؟! قالت: امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلي» ^(١).

لقد ظهرت حواء في المشهد القرآني حين أمر آدم أن يسكن الجنة، فهل خلقت قبل دخوله أم بعد ذلك، لم يبدُ هذا ذا أهمية في الخطاب القرآني، بل المهم هو تعليل وجودها بالدور الذي ستقوم به، نعم لقد أخبرنا القرآن أنها وجدت لتقوم بدور محدد، ليسكن إليها، نعم إنه الدور الأزلي والهدف الأعظم الذي تحدده الآيات التالية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ^(١١) [الروم].

□ قال صاحب «المنار»: «عبر التنزيل عن ميل الزوج الجنسي إلى جنسه هنا، وفي سورة الروم بالسكون، وذلك أن المرء إذا بلغ سن الحياة الزوجية يجد في نفسه اضطراباً خاصاً، لا يسكن إلا إذا اقترن بزوجة من جنسه واتحدا، ذلك الاقتران والاتحاد الذي لا تكمل حياتهما الجنسية المنتجة إلا به» ^(٢).

(١) «تفسير القرطبي» (٣٠١/١).

(٢) «تفسير المنار» (٤٣٢/٩).

□ قال السعدي: «أي: خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمam الشهوة»^(١).

□ وقال الشعراوي: «وقوله: ﴿لَيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ لأنه يريد أن يوضح أن المرأة جُعِلَتْ للرجل سكناً، لا يقال: إنها له سكن إلا إذا كان هو متحركاً، كأن الحركة والكدح في الحياة للرجل، ثم يستريح مع المرأة ويسكن إليها بالحنان، بالعطف، بالركة. أما إن لم تكن سكناً فهو يخرج من البيت لأن ذلك أفضل له. وقال في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] هذه هي العلة الأصلية في الزواج، أي: يسكن الزوجان أحدهما للآخر، والسكن لا يكون إلا عن حركة، كذلك فالرجل طوال يومه في حركة العمل والسعي على المعاش يكدح ويتعب، فيريد آخر النهار أن يسكن إلى مَنْ يريحه ويواسيه، فلا يجد غير زوجته عندها السَّكَن والحنان والعطف والركة، وفي هذا السَّكَن يرتاح ويستعيد نشاطه للعمل في غد.

لكن تصور إن عاد الرجل مُتعباً فلم يجد هذا السكن، بل وجد زوجته ومحلّ سكنه وراحته تزيدته تعباً، وتكدّر عليه صَفْوَهِ. إذن: ينبغي للمرأة أن تعلم معنى السَّكَن هنا، وأن تؤدي مهمتها لتستقيم أمور الحياة»^(٢).

إن كلمة سكن تحيل على معنى مناقض للمعنى الذي تحيل عليه كلمة خليفة، التي تحمل في طياتها معاني التحدي والمشقة والمسؤولية

(١) «تفسير السعدي» (٣١١/١).

(٢) «تفسير الشعراوي» (١١٣٦٠/١٨).

والصعوبات، ولذلك سنوضح مظاهر هذا السكن الذي هو استخلاف
تكميلي لدور الرجل في استخلافه التأسيسي، لنفهم هذه العلاقة التكاملية
العجيبة بين الذكورة والأنوثة، وإذا كان العنوان الذي يمكن أن
نجمل به دور الرجل في هذه الأرض هو «خليفة» فإن العنوان الذي
يمكن أن نجمل به دورها في تكميل دور آدم هو «سكن الخليفة»، وهذا
كله ضمن قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) [الذاريات]؛ فكل منهما أدواره المختلفة في لائحة مهام هذه العبودية.



مهام الاستخلاف التكميلي

إن هذا السكن الذي يطلبه آدم لدى حواء هو الضمان لاستكمال دوره واستمراره على هذه الأرض، لقد عبر القرآن عن حاجة الرجل إلى المرأة بعبارة ليسكن، ولتسكنوا، وكأن الرجل في حالة اضطراب حتى يلقي المرأة التي يسكن بها وإليها، وهذه مظاهر هذا السكن:

١ - الحاجة الغريزية .

٢ - العاطفة .

٣ - الخدمة .

٤ - الحفظ .

٥ - المؤانسة .

٦ - النسل .

ويجمعها البيت التالي :

لِشَهْوَةٍ عَاطِفَةٍ وَتَحْفَظُهُ وَخِدْمَةٍ تُؤْنِسُهُ وَتُخْلِدُهُ

١ - الحاجة الغريزية:

لقد جعل الله ﷻ الرجل لا يسكن إلا إذا أوى إلى زوجته، وجعل له ذلك الدافع الذي لا يستقر إلا إذا وجد له المخرج الطبيعي الفطري .
 قال القرطبي: « وَمِنْ عَايِنَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا »

إِلَيْهَا ﴿[الروم: ٢١]، فأول ارتفاع الرجل بالمرأة سكونه إليها مما فيه من غليان القوة، وذلك أن الفرج إذا تحمل فيه هيج ماء الصلب إليه، فإليها يسكن وبها يتخلص من الهياج، وللرجال خلق البضع منهن، قال الله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٦]، فأعلم الله ﷻ الرجال أن ذلك الموضع خلق منهن للرجال، فعليها بذله في كل وقت يدعوها الزوج، فإن منعه فهي ظالمة وفي حرج عظيم، ويكفيك من ذلك ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها». وفي لفظ آخر: «إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح» (١) (٢).

□ قال الغزالي: «أما بعد، فإن النكاح معين على الدين ومهين للشياطين وحصن دون عدو الله حصين وسبب للتكثير الذي به مباهاة سيد المرسلين لسائر النبيين فما أحراه بأن تتحرى أسبابه وتحفظ سننه وآدابه وتشرح مقاصده وآرابه وتفصل فصوله وأبوابه» (٣).

□ وقال في فوائد النكاح: «الفائدة الأولى الولد وهو الأصل وله وضع النكاح، والمقصود إبقاء النسل وأن لا يخلو العالم عن جنس الإنس، وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة كالموكل بالفحل في إخراج البذر وبالأُنثى في التمكين من الحرث تطفأ بهما في السياقة إلى اقتناص الولد بسبب الوقاع، كالتلطف بالطير في بث الحب الذي يشتهي ليساق إلى الشبكة، وكانت القدرة الأزلية غير قاصرة عن اختراع الأشخاص ابتداءً

(١) «تفسير القرطبي» (١٤/١٦ - ١٧).

(٢) رواه البخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٢/٢١).

من غير حراثة وازدواج، ولكن الحكمة اقتضت ترتيب المسببات على الأسباب، مع الاستغناء عنها إظهاراً للقدرة وإتماماً لعجائب الصنعة وتحقيقاً لما سبقت به المشيئة وحقت به الكلمة وجرى به القلم»^(١).

ثم قال في بيان فضل الجماع: «أما الوجه الأول فهو أدق الوجوه وأبعدها عن أفهام الجماهير وهو أحقها وأقواها عند ذوي البصائر النافذة في عجائب صنع الله تعالى ومجاري حكمه، وبيانه أن السيد إذا سلم إلى عبده البذر وآلات الحرث وهياً له أرضاً مهيأة للحراثة وكان العبد قادراً على الحراثة ووكل به من يتقاضاه عليها فإن تكاسل وعطل آلة الحرث وترك البذر ضائعاً، حتى فسد ودفع الموكل عن نفسه بنوع من الحيلة كان مستحقاً للمقت والعتاب من سيده»^(٢).

فلا شك أن هذه الغريزة من أهم أسباب السكن، ومن أهم أسباب احتياج الرجل للمرأة، هذه الحاجة التي سندرك أثرها في خلق التوازن بين الرجل القوي في الظاهر الضعيف في الباطن، الغني بالمال، الضعيف بالدلال، يهابه الرجال لكنه ضعيف عند ربات الحجال، فمن احتاج ذل، فسبحان الملك الأجل، الذي استغنى عن الصاحبة والولد والنسل.

٢ - العاطفة:

لا شك أن الإنسان محتاج إلى من يشاركه مشاعره في هذه الحياة، ولذلك سمي إنساناً، لأنه يأنس إلى بني نوعه ولا يستطيع العيش بمفرده. إن الحب شيء عجيب، ولو ذهبنا نعرفه ونذكر اختلاف الفلاسفة والعلماء في تفسيره لطال بنا الحديث، ولخرجنا عن مقصد هذا الكتاب، ولكن يكفي من هذا المقام، أنه تلك الطاقة الكهرواجتماعية التي

(١) المصدر السابق (٢/٢٤).

(٢) المصدر السابق.

تمسك قطع المجتمع بعضه إلى بعض، فهذه الطاقة هي التي تربط الأبوين بأبنائهما، وتربط الزوجين ببعضهما، وتربط الأصدقاء بالأصدقاء، فهو المادة التي تشد الناس بعضهم إلى بعض، فإذا قوي الحب في المجتمع زاد تماسكه وإذا ضعف انهارت العلاقات . .

لقد كان هذا الحب في الماضي طاقة قوية تحرك الشاب إلى العمل والجد من أجل أن ينال امرأة يعيش معها تجربة الحب، وحيث إنه لم يكن له في ذلك المجتمع المحافظ، أو ما أسميه «المجتمع الجاف» لم يكن له أن ينال ما يريد إلا عن طريق الزواج، فإنه يبذل كل جهده من أجل أن يثبت كفاءته وينال احتراماً يؤهله لحشد من يحتاج دعمهم من أهله وعشيرته كي يتقدموا لخطبة تلك الفتاة التي يتوق إليها، وهكذا تكون الشهوة محركاً قوياً يدفعه للجد والاجتهاد، ويحرك همته لينضج ويشتد ويكون على قدر المسؤولية، فإذا نظرت إلى ذلك المجتمع وجدت شبابه جادين مقبلين على ما يقبل عليه الرجال، آخذين في مظاهر النضج والرشد، كي يعجل بنيل الاحترام اللازم الذي يجعله محل ثقة أهل العروسة ليحقق ذلك المقصد، ويسد تلك الحاجة، ويدوق تلك العسيلة .

أما اليوم فقد صارت هذه الطاقة تحرك الشاب نحو الميوعة ليصل من خلال المظهر الأنيق والمنطق الرقيق إلى القلوب المتلهفة عن يمينه وشماله، في هذا المجتمع الذي يتيح الوصول إلى المرأة من دون تلك الطريق الشاقة .

فينبني الشاب تصوره هكذا: الزواج مسؤولية كبيرة، لا داعي لها، فمد يديك إلى ما حولك، وبادر الزمن كي تنال أقصى ما تقدر عليه من الشهوة المغلفة بالحب والرومانسية .

وهكذا تحولت تلك الطاقة الكهرو اجتماعية إلى قوة إفساد بعد أن كانت قوة إصلاح، وأصبحت دافعة نحو الزنا بعد أن كانت طاقة دافعة نحو الزواج، وسببا في تشتيت المجتمع وتفتيت عناصره، بعد أن كانت سببا في تلاحمه وصلابته، ومن هنا تدرك عظم جرم الزاني وعظم العقوبة التي سلطها الله عليه في الدنيا والآخرة.

إننا حين نتحدث عن حاجتنا إلى العاطفة والتي قد نسميها حبا أو مودة ورحمة، فإننا نتحدث عن مركب طبيعي يجري الإنسان عمره ليجده في مكان ما، ولذلك لا يسكن حتى يجد زوجه التي خلقت منه ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، إن الحب نطفة معنوية تحتاج لرحم تعلق فيه، حتى تتغذى وتكبر وتتكون أطوارا إلى أن تصبح شيئا صلبا قادرا على تحمل كل أعباء الحياة وتقلباتها، إن الحبال الوثيقة التي ترتبط بها الأسرة ضمن عقد الزواج، هي المكان الوحيد الذي يضمن رحما مستقرا يوفر بيئة مثالية للحب كي ينمو ويستقر، وإن كل حب خارج الزواج هو حمل خارج الرحم، إما أن يقتل المرأة أو يسقط في أحسن الأحوال.

الحب تلك النفحة الربانية التي تربط بين روحيين، لا ينبغي أن تطلب بما يغضب الله.

لقد قال عليه السلام: «لم يُر للمتحابين مثل الزواج»^(١)، لأنه هو المكان الأمثل لينشأ حب طويل الأمل، ثابت الأركان.

□ يقول ابن القيم في كتابه «روضة المحبين»: «الباب الرابع: في

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (١٨٤٧)، والحاكم (١٧٤/٢)، والطبراني في «الكبير» (١٧/١١)، وصححه الإمام البوصيري، والشيخ الألباني، والشيخ شعيب الأرناؤوط.

أن العالم العلوي والسفلي إنما وجد بالمحبة ولأجلها وأن حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم وحركات الملائكة والحيوانات وحركة كل متحرك إنما وجدت بسبب الحب»^(١).

إنه إثبات لهذه الطاقة المحركة لكل شيء في هذا العالم.

□ يقول صاحب كتاب «لغات الحب الخمس»: «إن أهم حاجة نفسية لدى الإنسان أن يكون محبوباً وأن يشعر بقيمته لدى الآخرين، يقول ماسلو صاحب هرم الاحتياجات الإنسانية:

حاجة الشخص إلى الإحساس بأنه محبوب من الطرف الآخر تأتي في مقدمة الرغبات جميعها، لقد قال لي أحدهم منذ فترة ما فائدة البيت، أو المصيف، أو السيارة، إذا كانت زوجة أحدهم لا تحبه؟ إن رغبتني في أن أشعر بالحب تفوق أي شيء آخر، لا يمكن أن تحل الأشياء المادية محل الحب والعاطفة.

وقال: كلمة الحب هي أهم كلمات اللغة، وهي أيضاً الأكثر إثارة للحيرة، وقد اتفق كل من المفكرين الدينيين والمفكرين العلمانيين على أن الحب له دور مهم في الحياة، وقد قيل: «إنَّ الحب هو أسمى معاني الجمال» وقيل أيضاً: «الحب يجعل العالم يتطور»^(٢).

إن وجود هذه الحاجة لدى الرجل، تجعله يعدل من سلوكياته بشكل مستمر ليضمن حصول هذه الحاجة في قلب زوجته، ولذلك تصبح هذه الطاقة الكهرو اجتماعية طاقة موازنة للقوامة وضابطة لها، بشكل يضمن عدم طغيان الزوج، وهو ما أثبتته الواقع وتاريخ العلاقات الإنسانية، التي تثبت دائماً تفوق القوة الناعمة على القوة الصلبة،

(١) «روضة المحبين» ص(٥٥).

(٢) «لغات الحب الخمس»، جاري تشابمان.

وهذا ما عناه الرسول ﷺ بقوله: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن»^(١).

ولقد تغنى الشعراء كثيرا بهذا المعنى وأعلنوا ضعفهم أمام العيون السوداء التي تأسر أشد العتاة، ومن أشهر ما قيل في ذلك: إن العيون التي في طرفها حورٌ قتلتنا ثم لم يُحيينَ قتلنا!

٣ - الخدمة:

الإنسان كائن معقد، وحياته تتطلب الكثير من المهام، وإذا نظرنا إلى مهام الداخل ومهام الخارج نجد أنها تتطلب عادة عشرين ساعة عمل، فالإسلام قسمها بين الرجل والمرأة بما يوافق طبيعة كل واحد منهما، عشر ساعات عمل خارج البيت للرجل، وعشر ساعات عمل داخل البيت للمرأة، لذلك ذهب الحنفية إلى وجوب خدمة المرأة لزوجها ديانة لا قضاء؛ لأن النبي ﷺ قسم الأعمال بين علي وفاطمة رضي الله عنهما، فجعل عمل الداخل على فاطمة، وعمل الخارج على علي، ولهذا فلا يجوز للزوجة - عندهم - أن تأخذ من زوجها أجرا من أجل خدمتها له، وهو الرأي الذي أيده شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله.

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: «وتنازع العلماء: هل عليها أن تخدمه في مثل فراش المنزل ومناولة الطعام والشراب والخبز والطحن والطعام لمماليكه وبهائمه: مثل علف دابته ونحو ذلك؟ فمنهم من قال: لا تجب الخدمة. وهذا القول ضعيف كضعف قول من قال: لا تجب عليه العشرة والوطء؛ فإن هذا ليس معاشرة له بالمعروف؛ بل صاحب في السفر الذي هو نظير الإنسان وصاحبه في المسكن إن لم يعاونه على مصلحة لم يكن قد عاشره بالمعروف. وقيل - وهو الصواب -

(١) صحيح: وقد تقدم.

وجوب الخدمة؛ فإن الزوج سيدها في كتاب الله؛ وهي عانية عنده بسنة رسول الله ﷺ وعلى العاني والعبد الخدمة؛ ولأن ذلك هو المعروف. ثم من هؤلاء من قال: تجب الخدمة اليسيرة. ومنهم من قال: تجب الخدمة بالمعروف وهذا هو الصواب فعليها أن تخدمه الخدمة المعروفة من مثلها لمثله ويتنوع ذلك بتنوع الأحوال: فخدمة البدوية ليست كخدمة القروية وخدمة القوية ليست كخدمة الضعيفة»^(١).

□ وقال ابن القيم الجوزية رحمه الله: «قال ابن حبيب في الواضحة: حكم النبي ﷺ بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبين زوجته فاطمة رضي الله عنها حين اشتكى إليه الخدمة فحكم علي فاطمة بالخدمة الباطنة خدمة البيت وحكم علي بالخدمة الظاهرة.

ثم قال ابن حبيب: والخدمة الباطنة: العجين والطبخ والفرش وكنس البيت واستقاء الماء وعمل البيت كله.

وفي «الصحيحين»: أن فاطمة رضي الله عنها أتت النبي ﷺ تشكو إليه ما تلقى في يديها من الرحى وتسأله خادما فلم تجده فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فلما جاء رسول الله ﷺ أخبرته قال علي: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبنا نقوم فقال: «مكانكما». فجاء فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه علي بطني فقال: «ألا أدلكما علي ما هو خير لكما مما سألتما إذا أخذتما مضاجعكما فسبحا الله ثلاثا وثلاثين واحمدا ثلاثا وثلاثين وكبرا أربعا وثلاثين؛ فهو خير لكما من خادم». قال علي: فما تركتها بعد قيل: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين»^(٢).

وصح عن أسماء أنها قالت: «كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله

(١) «مجموع الفتاوى» (٩٠/٣٤ - ٩١).

(٢) رواه البخاري (٣٧٠٥).

وكان له فرس وكنت أسوسه وكنت أحتش له وأقوم عليه، وصح عنها أنها كانت تعلق فرسه وتسقي الماء وتخز الدلو وتعجن وتنقل النوى على رأسها من أرض له على ثلثي فرسخ»^(١).

فاختلف الفقهاء في ذلك: فأوجب طائفة من السلف والخلف خدمتها له في مصالح البيت وقال أبو ثور: عليها أن تخدم زوجها في كل شيء ومنعت طائفة وجوب خدمته عليها في شيء وممن ذهب إلى ذلك مالك والشافعي وأبو حنيفة وأهل الظاهر قالوا: لأن عقد النكاح إنما اقتضى الاستمتاع لا الاستخدام وبذل المنافع قالوا: والأحاديث المذكورة إنما تدل على التطوع ومكارم الأخلاق فأين الوجوب منها؟

واحتج من أوجب الخدمة بأن هذا هو المعروف عند من خاطبهم الله سبحانه بكلامه وأما ترفيه المرأة وخدمة الزوج وكنسه وطحنه وعجنه وغسيله وفرشه وقيامه بخدمة البيت فمن المنكر والله تعالى يقول: ﴿وَلَكِنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، وإذا لم تخدمه المرأة بل يكون هو الخادم لها فهي القوامة عليه.

وأیضا: فإن المهر في مقابلة البضع وكل من الزوجين يقضي وطره من صاحبه فإنما أوجب الله سبحانه نفقتها وكسوتها ومسكنها في مقابلة استمتاعه بها وخدمتها وما جرت به عادة الأزواج.

وأیضا فإن العقود المطلقة إنما تنزل على العرف والعرف خدمة المرأة وقيامها بمصالح البيت الداخلة وقولهم: إن خدمة فاطمة وأسماء كانت تبرعا وإحسانا، يرده أن فاطمة كانت تشتكي ما تلقى من الخدمة فلم يقل لعلی: لا خدمة عليها وإنما هي عليك، وهو ﷺ لا يحابي في

(١) رواه البخاري (٥٢٢٤)، ومسلم (٢١٨٢).

الحكم أحداً، ولما رأى أسماء والعلف على رأسها والزبير معه لم يقل له: لا خدمة عليها وأن هذا ظلم لها، بل أقره على استخدامها، وأقر سائر أصحابه على استخدام أزواجهم، مع علمه بأن منهن الكارهة والراضية هذا أمر لا ريب فيه.

ولا يصح التفريق بين شريفة ودنيئة وفقيرة وغنية فهذه أشرف نساء العالمين كانت تخدم زوجها وجاءته ﷺ تشكو إليه الخدمة فلم يشكها، وقد سمى النبي ﷺ في الحديث الصحيح المرأة عانية فقال: «اتقوا الله في النساء فإنهن عوانٍ عندكم»^(١)، والعاني: الأسير، ومرتبة الأسير خدمة من هو تحت يده، ولا ريب أن النكاح نوع من الرق كما قال بعض السلف: النكاح رق؛ فليُنظر أحدكم عند من يرق كريمته، ولا يخفى على المنصف الراجح من المذهبين، والأقوى من الدليلين^(٢).

وبعيداً عن الخلاف الفقهي فإننا ننظر إلى مبدأ التخدام التكاملي الذي بنى عليه الإسلام العلاقة فنجد أن الأسرة لا بد لها من مسكن وهذا المسكن لا بد أن تتوفر فيه الحاجات الأساسية التي هي:

○ النظافة: فالإنسان لا يعيش في الأوساخ والفوضى.

○ الطعام: فالإنسان لا بد له من أكل.

○ رعاية الأبناء: فالطفل يحتاج وقتاً كبيراً وجهداً للعناية به.

وعليه فعقد الزواج غايته توفير السكن، والسكن لا يتم إلا بهذه الأمور، فإما أن نكلف بها الرجل، فنكون قد شغلناه عن دوره الأساسي في الإنفاق والاستخلاف، وإما أن نكلف بها المرأة التي خلقت ليسكن

(١) حسن: رواه الترمذي (١١٦٣)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٢٤)، وصححه الإمام الترمذي، وحسنه الشيخ الألباني.

(٢) «زاد المعاد» (١٦٩/٥).

إليها الرجل، فيكون هذا من توابع سكنه إليها وإلى منزلها الذي هو المسكن؛ أي: محل السكن.

وأيضاً فإن مقابلة الإحسان لا تكون إلا بالإحسان، وحيث إنه ينفق على زوجته وأطفاله ويوفر لهم ما يحتاجونه من شؤون العيش، وحيث إنها لا بد أن تأكل وتطبخ لنفسها وأطفالها، فلا معنى أن نقول لها كلي أنت وأطفالك واتركي زوجك يبحث عمن تطبخ له، ليس هذا في العقل ولا في المنطق ولا في حسن المعاشرة.

وحين نتأمل صيرورة الحياة، نجد أن خدمة المرأة لزوجها من أهم أسباب انتظام العيش بينهما، بل هي مظهر من مظاهر احتياج الرجل للمرأة، هذا التحاوج الذي يضمن التكامل، فالخدمة قوة ناعمة يحتاجها الرجل حاجة ماسة ليريح نفسه من عناء الحياة.

إن هذه الخدمة تحول الرجل مع الوقت إلى (عالة) داخل البيت، أي أنه لا يستطيع أن يفعل أي شيء إلا بوجود زوجته، حتى إنه ليرتبط اسمها في عقله الباطن بكل ما يحتاج إليه، فإذا جاع قال فلانة، وإذا ضاع منه شيء، قال عقله الباطن فلانة، حتى تتحول زوجته إلى ضرورة من ضرورات عيشه، وهذا غاية ما يحصل من التكامل، وغاية ما تصل إليه المرأة من التمكّن في علاقتها بالرجل، وأما الذي يدير كل أمور بيته بنفسه، ولا تخدمه زوجته، فإنه ما أسرع أن يستغني عنها عند أي خلاف، فلا يكاد يحصل بينه وبينها نزاع حتى تتحدث غريزة المصلحة في نفسه: إنني لا أحتاجها فلماذا أصبر عليها.

إن الحياة لا تستقر إلا بخدمتين، خدمة الداخل وخدمة الخارج، وكل واحدة من هاتين الخدمتين تحتاج ثمرة وقت الإنسان، والتي تكون عادة بين ثمان إلى عشر ساعات في اليوم، فعلى هذا الاعتبار تحتاج أسرة مستقرة إلى عشرين ساعة عمل، عشر في الداخل وعشر

- في الخارج، فتكون الاحتمالات هي كالتالي :
- أن يعمل الزوجان معا في الداخل والخارج .
 - أن يعمل الزوج في الخارج وتعمل الزوجة في الداخل .
 - أن يعمل الزوج في الداخل وتعمل الزوجة في الخارج .
 - أن يعمل أحد الطرفين العاملين معا ولا يعمل الآخر شيئا .
- وبديهي أن الاحتمال الأخير غير عادل، وغير ممكن، إذ لا يمكن لشخص أن يقوم بالمهمتين .
- وبديهي أيضا أن عمل الاثنين معا في الداخل والخارج مرهق لهما ومرهق للأطفال الذين لن يجدوا من يعتني بهم في سائر اليوم .
- بقي أن تعمل المرأة في الخارج ويعمل الرجل في الداخل وهذا الاحتمال ساقط بأصل فطرة الرجل الذي لا يطيق المكوث بالبيت، ولا يستطيع أن يسد مسد المرأة في عاطفتها وأمومتها .
- فالاحتمال الوحيد الباقي هو أن يعمل الرجل في الخارج وتعمل المرأة في الداخل وهو متوافق مع الفطرة والشريعة ومؤد لاحتياجات الأسرة وحافظ لحقوق الأطفال ومريح لكل الأطراف :
- فالزوجة مطمئنة في بيتها ومطبقة للقرار الذي أمرت به .
 - والطفل آمن بجانب أمه .
 - والرجل يعمل ما جبل على عمله .
- هذه فطرة الله، وأي تغيير في هذه المعادلة يؤدي إلى :
- إرهاق الزوجة بالخروج كل يوم .
 - تضييع حق الطفل بإبعاده عن أمه .
 - تضييع حق الزوج بعدم توفير أساسيات العيش .

◉ تعريض الزوجة لمخاطر الخروج والتزامن في العمل .

لقد عجز الغرب أن يفهم هذه المعادلة البسيطة نظرا لأنه يرى في الرجل عدوا محتملا للمرأة، لذلك يريد لها أن تكون مستقلة عنه بالمال حتى لا تحتاج إليه، فإذا كانت المرأة محتاجة إلى المال احتاجت إلى العمل، وبالتالي لن تستطيع القيام بالمهمتين لوحدها، فلا بد إذن أن يساعدها الزوج .

هذا من نظر سطحي، أما إذا تعمقنا أكثر فسنجد المكر الشيطاني في هذه الفكرة هو في إزالة التكامل بين الرجل والمرأة وجعل كل واحد منهما كيانا مستقلا عن الآخر، وهذا مفهوم متعارض تماما مع مفهوم التزاوج الذي هو تلبس وتكامل: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وبالتالي فإن الاستقلالية تعمل على التنافر بين الزوجين، مما يؤدي إلى فشل منظومة الزواج في نهاية المطاف، وهو ما وصلت إليه الحضارة الغربية ولم تجد له مخرجا .

من هنا كانت خدمة المرأة لزوجها أحد أهم مظاهر سكنه إليها، واحتياجه لها، وسرا من أسرار ضمان استمرارية العلاقة الزوجية المبنية على التخادم التكاملي .

٤ - الحفظ:

إن المرأة بالنسبة للرجل هي المأوى الذي ينتهي إليه بعد تطوافه في دروب العيش، لقد كان منذ القدم يجمع ما يحصل عليه من صيد وما يحصده من زرع، ليحوزه في داره التي هي صندوقه الكبير الذي يحوز فيه كل ما يمتلكه من مال وما يهبه الله إياه من ذرية وأبناء، إنها مملكته الصغيرة التي يعيش فيها ويعيش لأجلها، لذلك كان من أهم أدوار المرأة أن تحفظ هذه المملكة الصغيرة وتحافظ على:

- ١ - نفسها : فلا تفرط في حياتها وحجابها .
 - ٢ - أبنائها : فلا تفرط في تربيتهم ومراقبتهم .
 - ٣ - ماله : فلا تبذره أو تنفقه في غير ما أذن لها فيه .
 - ٤ - بيته : فلا تدخله من لا يحب ، ولا تتصرف فيه بغير ما يرضيه .
- قال تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾
[النساء : ٣٤] .

□ جاء في «تفسير الواحدي»: «قال ابن عباس: يعني لا تدخل منزله من يكره، ولا تُوطئ فراشه أحداً غيره، وتحفظه في نفسها وفيما يحق له بما استودعها الله، وقال قتادة وعطاء وسفيان: أي حافظات لما غاب عنه أزواجهن من المال، وما يجب من صيانة نفسها له، وقال أبو روق: يعني يحفظن فروجهن في غيبة أزواجهن والغيب ههنا مصدر بمعنى المفعول، وهو المَغِيب عنه»^(١) .

□ جاء في «الموسوعة الفقهية»: «من حقِّ الزَّوج على زوجته ألا تأذن في بيته لأحد إلا بإذنه، لما ورد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ»^(٢)»^(٣) .

وهذا الحفظ أساسي لتصور منصب سكن الخليفة فكل سعيه مرتبط بمدى قدرتها على حفظ ذلك السعي، سواء كان سعيًا ماديًا متعلقًا بما يكسبه ويدخره، أو بشريًا متعلقًا بأولاده وحرصه على عيشهم وفق نمط معين وسلوك معين، إن الوزير يعظم قدره على قدر حفظه لأسرار

(١) «تفسير الواحدي» .

(٢) رواه البخاري (٤٨٩٩) ومسلم (١٠٢٦) .

(٣) «الموسوعة الفقهية» (١٢٥/٣٠) .

المملكة وحياطته لمكتسبات الدولة وحسن تدبيرها لها، وعليه جعلت المرأة وزيرة لزوجها حافظة له في نفسه وماله وولده، كل ذلك تشمله الآية الكريمة ﴿حَفِظْتُ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

٥ - المؤانسة:

وهي السكن المعنوي والألفة النفسية التي يجد فيها الزوج الصدر الحنون الذي يمتص أحزانه ويسلي عنه همومه، وهي حاجة من حاجات النفس الضرورية، إنها البعد التكاملي في حاجة الإنسان إلى شيء من نفسه يسكن إليه.

□ قال ابن عباس: «لما أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشاً، فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصري من شقه الأيسر ليسكن إليها ويأنس بها؛ فلما انتبه رآها فقال: من أنت؟! قالت: امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إليّ»^(١).

□ قال البقاعي: عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]؛ بالشهوة والألفة، من قولهم: سكن إليه - إذا مال وانقطع واطمأن إليه، ولم يجعلها من غير جنسكم لئلا تنفروا منها.

ولما كان المقصود بالسكن لا ينتظم إلا بدوام الألفة قال: ﴿وَجَعَلَ﴾ أي صير بسبب الخلق على هذه الصفة ﴿يَبْنِيكُمْ مَوْدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] أي معنئ من المعاني يوجب أن لا يحب واحد من الزوجين أن يصل إلى صاحبه شيء يكرهه مع ما طبع عليه الإنسان من محبة الأذى^(٢).

(١) «تفسير القرطبي» (٣٠١/١).

(٢) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٦١٣/٥).

هذه المؤانسة هي سبب المودة والرحمة التي جعلها الله ثمرة المعاشرة بالمعروف، وأغلب كلام الناس في السكن من هذا الجانب، لكن هذا الجانب لا يتم إلا باستقرار العلاقة الزوجية على مبدأ القوامة الذي هو معاشرة بالمعروف من الزوج وطاعة بإحسان من الزوجة.

ولسنا بقصد توضيح هذه المؤانسة وأبعادها النفسية، فذاك مما سيخرج بنا عن المقصود، إلا أننا نثبت أنها حاجة فطرية وسر من أسرار الارتباط بين الرجل والمرأة، وهذا سر تكرار قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إذ إن سر السكن كونها خلقت منه ومن ضلعه.

□ قال ابن عاشور: «والنفس الواحدة: هي آدم. والزوج: حواء، فإن حواء أخرجت من آدم من ضلعه، كما يقتضيه ظاهر قوله منها.

و﴿مِنْ﴾ تبعية. ومعنى التبعية أن حواء خلقت من جزء من آدم. قيل: من بقية الطينة التي خلق منها آدم. وقيل: فصلت قطعة من ضلعه وهو ظاهر الحديث الوارد في الصحيحين.

ومن قال: إن المعنى وخلق زوجها من نوعها لم يأت بطائل، لأن ذلك لا يختص بنوع الإنسان فإن أنثى كل نوع هي من نوعه» (١).

إن هذه المؤانسة وإن كانت مشتركة بين الرجل والمرأة فإن ظهورها في المرأة أكثر، فالمؤانسة تحتاج العاطفة، والمرأة عاطفة متجسدة في صورة إنسان، لذلك فهي مبتدأ هذه المؤانسة، ومن مادتها يتلقى الذكر العاطفة من أمه في البداية، ثم من زوجه في النهاية.

٦ - النسل المخلد للذكر:

إن الأبناء من أهم مظاهر السكن، يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفَةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ

(١) «التحرير والتنوير» (٢١٥/٤).

الطَّيَّبَتِ ﴿ [النحل: ٧٢] .

□ يقول الطاهر ابن عاشور في تفسير هذه الآية: «وجعل البنين للإنسان نعمة، وجعل كونهم من زوجه نعمة أخرى؛ لأن بها تحقق كونهم أبناءه بالنسبة للذكر، ودوام اتصالهم به بالنسبة، ووجود المشارك له في القيام بتدبير أمرهم في حالة ضعفهم.

والحفدة: جمع حافد، مثل كلمة جمع كامل، والحافد أصله المسرع في الخدمة، وأطلق على ابن الابن؛ لأنه يكثر أن يخدم جده لضعف الجد بسبب الكبر، فأنعم الله على الإنسان بحفظ سلسلة نسبه بسبب ضبط الحلقة الأولى منها، وهي كون أبنائه من زوجه ثم كون أبناء أبنائه من أزواجهم، فانضبطت سلسلة الأنساب بهذا النظام المحكم البديع، وغير الإنسان من الحيوان لا يشعر بحفدته أصلاً، ولا يشعر بالبنوة إلا أنثى الحيوان مدة قليلة قريبة من الإرضاع، والحفدة للإنسان زيادة في مسرة العائلة، قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَهَا بَأْسَاقٍ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ﴿٧١﴾ [هود] (١).

□ يقول سيد عند هذه الآية: «والإنسان الفاني يحس الامتداد في الأبناء والحفدة، ولمس هذا الجانب في النفس يثير أشد الحساسية» (٢).

إن شعور الإنسان ببقاء نسله هو شعور عميق يبعث فيه الرضا والطمأنينة وهو نوع من أنواع الخلد التي طلبها أبونا آدم حين أكل من الشجرة، ولذلك كان بقاء الذكر من أهم ما يحرص عليه الإنسان، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ [الشعراء].

□ قال السعدي: «أي: اجعل لي ثناء صدق، مستمر إلى آخر الدهر.

(١) المصدر السابق (٢١٩/١٤).

(٢) «في ظلال القرآن» (٢١٨٣/٤).

فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم، ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوباً مقبولاً معظماً مثني عليه، في جميع الملل، في كل الأوقات»^(١).

إن شهوة الخلود هي مكون أساسي لمكونات الاستقرار النفسي، فالإنسان يرى في ذريته بقاء لاسمه على وجه الأرض، لذلك يحرص أن يترك لهم ماله وملكه، ولا تجد المَلِك حريصاً على شيء كحرصه على أن يستمر المُلْك في ولده، بل لعله يخوض حروباً طاحنة من أجل ضمان ذلك، مع أن انتقال الملك لغير ولده لا يعني له شيئاً بعد الموت، فإذا مات الإنسان انقطع عن الدنيا، فلا ينفعه ملك ابنه ولا يضره ملك غيره، فلم يحرص عليه إذن؟ إنها شهوة الخلود، وهي ما يجعل الرجل يشعر بالسكن والاستقرار.

من هنا كانت المرأة هي المظهر الوجودي لهذه الشهوة، فمن خلالها يرى الإنسان أبنائه، وهذا أيضاً سر من أسرار القوى التي جعلها الله للمرأة ليكفل لها حقوقها ويضمن لها لين جانب الزوج وحرصه عليها.

(١) «تفسير السعدي» (١/٥٩٣).

مَنْ الَّذِي يَسْكُنُ لِلْآخِرِ؟

هل المرأة سكن للرجل، أم كلاهما سكن لبعضهما البعض؟
لقد بينا فيما سبق طبيعة الرجل المتحركة، وطبيعة المرأة الساكنة،
من هنا فإن صفة السكون ألصق بالمرأة، وعليه فإنها هي الأساس في
حصول السكن، وإن كانت هي تسكن إلى زوجها بمقدار ما يسكن إليها.
وهذا هو التلابس الذي أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿هُنَّ
لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فالسكن من الزوج إلى زوجته
بطبيعة دورها، وسكنها إليه بطبيعة ارتداد ذلك السكن عليها، فهي
التي ينشأ منها السكن، ثم تسكن هي بسكونه هو إليها. فسكونه إليها
سبب وسكونها إليه نتيجة.

القرار أساس السكن

لقد فرغ الله المرأة لهذه المهمة العظيمة، ولكي تستطيع القيام بها على أكمل وجه شرع لها عبادة القرار في البيت، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

□ قال القاضي أبو بكر ابن العربي رحمته الله: «قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ يعني اسكنن فيها، ولا تتحركن، ولا تبرجن منها»^(١).

□ ويقول سيد قطب رحمته الله: «فيها إيماء لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل في حياتهن، وهو المقر، وما عداه استثناءً طارئاً لا يثقلن فيه ولا يستقررن، إنما هي الحاجة تقضى وبقدرها»^(٢).

لقد قال النبي ﷺ لنسائه في حجته: «هذه ثم ظهور الحصر». رواه أحمد^(٣).

□ قال ابن كثير رحمته الله في التفسير: «يعني: ثم إلزمن الحصر، ولا تخرجن من البيوت»^(٤).

ولهذا فهم الصحابة حرص الشريعة على قرار المرأة في بيتها،

(١) «أحكام القرآن» (٣/٥٦٨).

(٢) «في ظلال القرآن» (٥/٢٨٥٩).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٥/٢١٨)، وأبو داود (١٧٢٢)، وصححه الشيخ الألباني والشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٤) «تفسير ابن كثير» (٢/٨٢).

فقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما تقربت امرأة إلى الله ﷻ، بأعظم من قعودها في بيتها» ^(١).

□ قال القرطبي: «ذكر الثعلبي وغيره: أن عائشة رضي الله عنها كانت إذا قرأت هذه الآية تبكي حتى تبل خمارها. وذكر أن سودة قيل لها: لم لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججت واعتمرت، وأمرني الله أن أقر في بيتي. قال الراوي: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها. رضوان الله عليها.

قال ابن العربي: لقد دخلت نيفا على ألف قرية فما رأيت نساء أصون عيالا ولا أعف نساء من نساء نابلس، التي رمي بها الخليل ﷺ بالنار، فإني أقمت فيها فما رأيت امرأة في طريق نهارا إلا يوم الجمعة فإنهن يخرجن إليها حتى يمتلئ المسجد منهن، فإذا قضيت الصلاة وانقلبن إلى منازلهن لم تقع عيني على واحدة منهن إلى الجمعة الأخرى» ^(٢).

إنه لا يتحقق السكن إلا بقرار المرأة في بيتها، فإن السكن مرتبط بوجودها المادي والمعنوي، فإذا خرجت لدوامه الحياة الخارجية تاهت في تلك الدوامه، وأصبحت هي في حاجة إلى السكن حين ترجع إلى البيت. فبعد أن كانت مولدة للسكن أصبحت محتاجة إليه.

□ يقول سيد قطب: «والبيت هو مثابة المرأة التي تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى. غير مشوهة ولا منحرفة ولا ملوثة، ولا مكدودة في غير وظيفتها التي هيأها الله لها بالفطرة. ولكي يهيئ الإسلام للبيت جوه ويهيئ للفراخ الناشئة فيه رعايتها،

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» - بنحوه - (٤/٤٢٠).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٤/١٨١).

أوجب على الرجل النفقة، وجعلها فريضة، كي يتاح للأم من الجهد ومن الوقت، ومن هدوء البال، ما تشرف به على هذه الفراخ الزغب، وما تهين به للمثابة نظامها وعطرها وبشاشتها. فالأم المكدودة بالعمل للكسب، المرهقة بمقتضيات العمل، المقيدة بمواعيده، المستغرقة الطاقة فيه لا يمكن أن تهب للبيت جوه وعطره، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها. وبيوت الموظفات والعاملات ما تزيد على جو الفنادق والخانات؛ وما يشيع فيها ذلك الأرج الذي يشيع في البيت. فحقيقة البيت لا توجد إلا أن تخلقها امرأة، وأرج البيت لا يفوح إلا أن تطلقه زوجة، وحنان البيت لا يشيع إلا أن تتولاه أم. والمرأة أو الزوجة أو الأم التي تقضي وقتها وجهدها وطاقاتها الروحية في العمل لن تطلق في جو البيت إلا الإرهاق والكلال والملال.

وإن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة. أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها، فتلك هي اللعنة التي تصيب الأرواح والضمائر والعقول، في عصور الانتكاس والشور والضلال»^(١).

□ يقول الشيخ ابن باز رحمته الله: «سمى الله مكث المرأة في بيتها قرارًا وهذا المعنى من أسمى المعاني الرفيعة ففيه استقرار لنفسها وراحة لقلبها وانسراح لصدرها فخرجها عن هذا القرار يفضي إلى اضطراب نفسها وقلق قلبها وضيق صدرها وتعريضها لما لا تحمد عقباه»^(٢).

إن لمحة واحدة لمهام الأم، وما تحتاج إليه من جهد ووقت وحرص ومتابعة ليدل على رحمانية هذا الأمر الإلهي بالمرأة واعتراف بدورها

(١) «في ظلال القرآن» (٢٨٥٩/٥).

(٢) «مجموع فتاوى ابن باز» (٤٢٢/١).

وتفريغ لها من هموم الكسب والسعي والضرب في الأرض للتجارة وغيرها، وهو كذلك رحمة بهؤلاء الأطفال الذين هم في أمس الحاجة إلى أمهاتهم.

يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢]، فعلام تذهل المرأة اليوم عن رضيعها؟ وعلام تجعله يعيش اليتيم ثماني ساعات كل يوم؟





أحكام الشريعة ومقصد السكن



لقد جعل الله الأحكام الشرعية متوافقة مع تحقيق مقصد السكن، ولذلك فإن إيجاب النفقة للمرأة إنما هو مظهر من مظاهر تحقيق هذا المقصد، كي لا تحتاج إلى الخروج من أجل توفير لقمة العيش، ولكي لا تكون هذه الحاجة طاردة لها عن مسكنها الذي هو أقرب ما تكون إلى الله وهي فيه.

ولهذا أسقط عنها الجمعة والجماعة والجهاد وكثيرا من الأحكام التي تستلزم الخروج من البيت، لتكون الشريعة كلها موجهة لها للبقاء في البيت.

□ قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]: «معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النبي ﷺ فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء، كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة، على ما تقدم في غير موضع»^(١).

لذلك فإن مقصد السكن لا يتحقق إلا إذا قرت المرأة في بيتها، عندها فقط، يجد الطفل أمه ويجد الزوج زوجته، وتجد هي من الوقت والجهد ما تؤدي به دورها الذي هو أساس التربية الصالحة، بإجماع المربين.

(١) «تفسير القرطبي» (١٧٩/١٤).

إن هذا المشهد الذي نراه اليوم في خروج النساء كل صباح من بيوتهن واصطفافهن أمام الحافلات وفي أبواب المصانع والشركات، لهو مشهد غريب على أمة الإسلام، بل هو انتكاسة خطيرة تنذر بخطر عظيم.

□ يقول العلامة ابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى** : «ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كل بلية وشر، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة، وهو من أسباب الموت العام والطواعين المهلكة. ولما اختلط البغايا بعسكر موسى **عليه السلام** وفشت فيهم الفاحشة؛ أرسل الله تعالى عليهم الطاعون؛ فمات في يوم واحد سبعون ألفاً، والقصة مشهورة في كتب التفسير. فمن أعظم أسباب الموت العام: كثرة الزنا؛ بسبب تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال، والمشي بينهم متبرجات متجملات» ^(١).

□ إنها اللعنة - كما سماها سيد **رَحْمَةُ اللَّهِ** - : «إن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة. أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها، فتلك هي اللعنة التي تصيب الأرواح والضمائر والعقول، في عصور الانتكاس والشرور والضلال» ^(٢).



(١) «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» (٢/٧٢٤).

(٢) «في ظلال القرآن» (٥/٢٨٦٠).



معادلة الاستقرار الأسري



الأسرة هي سر استمرار المجتمع، فهي المصنع الذي يزود المجتمع بالإنسان، وهذا المصنع له آلية معقدة في الإنتاج والتربية والتعليم إلى أن نصل إلى هذا المنتج في صورته النهائية ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (٧) [مريم] الإنسان السوي أو الإنسان الصالح الذي هو النواة الأولى التي تشكل الأمة، فالإنسان الصالح هو المدرس والطبيب والمهندس وأيضا القاضي الذي يحاكم المجرمين والشرطي الذي يقيم النظام والجندي الذي يحارب للدفاع عن هذا التجمع البشري، فصلاح الإنسان هو صلاح لهذه الوظائف كلها وبالتالي الوصول إلى مجتمع سوي، وهو ما يؤدي إلى حياة مستقرة ينمو فيها الاقتصاد وتزدهر فيها الدولة.

الأسرة لا يمكن أن تتكون من شخص لوحده رجل أو امرأة بل لا بد لها أن تتكون من الطرفين معا، أي الزوج، والزوج هو الخلية بمكونيها: الرجل والمرأة، فكلاهما ينصهران برابطة الزواج ليكونا شيئا واحدا اسمه: زوج، وهذا يجعلهما مضطرين إلى العيش تحت سقف واحد، وهو ما يوصلنا إلى الحتمية الطبيعية التي تقول: إن أي اجتماع لشخصين لا بد فيه من تزاخم المصالح وتدافع الأغراض، وهو ما يحتم وقوع النزاع لتعارض مصلحة هذين الطرفين الذين هما أساس خلية الأسرة.

وبما أنه لا بد من هذا التنازع فلا بد إذن من وجود نظام يتفق عليه

الطرفان يكون دستوراً بينهما يحدد صلاحيات كل فرد ودوره في الأسرة، وهو ما ضبطه الشرع في الأحكام التي جعلها دستوراً للأسرة تضمن انحصار معدلات النزاع، تماماً كفكرة قانون الشركات أو قانون السير الذي لولاه لكثرة الحوادث وتضاعفت، وبالرغم من وجود قانون السير فلا بد من وقوع الحوادث، وهي الخلافات الزوجية في قضيتنا، لكن وجود هذا القانون يُنقص من احتمالات هذه الحوادث والخلافات إلى أدنى نسبة ممكنة، فما دامت الأسرة لا تتم إلا بوجود رجل وامرأة، وما دام وجود شخصين في مكان واحد لا بد فيه من تزاحم المصالح الذي يؤدي إلى الخلاف ومن ثم الاختلاف: كان لا بد من وجود نظام يحدد صلاحيات الطرفين ويرتب العلاقة بينهما، وهو ما وضعه القرآن الكريم في سورة النساء وسورة الطلاق، ووضحته السنة النبوية بما لا مزيد عليه.

لكن الشرع الحكيم لم يكتف بوضع قانون يضمن استمرار رابطة الزواج، بل جعل في فطرة كل من الرجل والمرأة نوعاً من القوة الجاذبة تضمن ارتباطهما وانصهارهما في بعضهما البعض من أجل تشكيل هذا الزوج الذي هو خلية متماسكة كتماسك النواة بالإلكترونات، تجذبهما طاقة ضامنة لالتصاقهما في فلك محدد لا يمكن أن ينفكا عنه إلا بدرجة عنيفة، وهذان القوتان هما: القوة الصلبة لدى الرجل والقوة الناعمة لدى المرأة.

فمعادلة الاستقرار الأسري هكذا: الرجل في حاجة إلى المرأة لأنه يحتاج إلى السكن والاستمتاع، وهي في حاجة إليه لأنها محتاجة للمال والحماية، وعبر هذين الاحتياجين يتولد ما أسميناه التخاذم التكاملي، ثم يأتي الأبناء فيكون كل مولود بمثابة ركن ينضاف إلى هذه البنية ليزيد من تماسكها واستقرارها، ويزيد في قوة المرأة وتجذرهما في

حياة هذا الرجل إذ تنتقل من زوجة إلى أم أولاد، ويصير حبه لأبنائه مرتبطا بحبه لأمهم في تركيبة نفسية عجيبة تنتهي بانتماء تام حتى تكون هذه المرأة وهذا الرجل شيئا واحدا، لا يمكن فصلهما أو تخيل أحدهما بدون الآخر، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، فالنسب هو العلاقة بالدم، والصهر هو العلاقة بالزواج، وهي التي تجعل أم زوجتك وأباها وإخوانها جزءا من أسرتك، تربط بينك وبينهم علاقات أساسها هذا الزواج العجيب الذي هو آية من آيات الله، فكأن المصاهرة تصهر معدن الرجل ومعدن المرأة فينصهران في معدن جديد، ويصيران شيئا واحدا.

فاستقرار الأسرة يبدأ من هذا النظام الداخلي الذي حدده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، هذا الاستقرار الذي يتعزز بالتحاور والتخادم بين هاتين القوتين القوة الصلبة والقوة الناعمة، ويزيد بالتكاثر والأبناء ويتصلب بالزمن والأيام، حتى تصير الأسرة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.



كيف حمى الله ﷻ المرأة من تسلط الرجال؟

لقد انتشر الفكر النسوي في شريحة عريضة من نساء المسلمين، وحين نبحت في أسبابه نجد أن من أهمها تلك الرغبة في الأمان، أي أن الخطاب النسوي يحمل أملا للمرأة، وهو الأمل في أن لا تبقى معرضة لرحمة الرجل، إن أكرمها عاشت كريمة، وإن سخط عذبها واضطهداها، أو هكذا يريدونها أن تتصور، فهل فعلا حماها استقلالها عن الرجل؟ وكيف إذن حمى الله المرأة من تسلط الرجل؟

والسؤال بالتحديد هو: إذا كان الشرع قد أعطى الرجل القوامة وأعطاه القوة المالية، فما الذي يضمن لنا أنه لن يتسلط على هذه الضعيفة ويطغى عليها بماله وقوته ومكانته؟

إن هذا السؤال منطقي، وهذا التخوف معتبر، وهو الذي جعل كثيرا من النساء ينفرن من أحكام القوامة والطاعة التي تجعل للرجل سلطة مطلقة - في نظرهن - ولسنا هنا نعلل أو نبرر، لكننا هنا لكي نطرح الحلول الشرعية كما أرادها الله، وقبل ذلك لا بد أن نفهم سبب اللبس ومنشأ الغلط، وعليه فإننا نقرر إن الله ﷻ الحكيم، لا يمكن أن يمنح للرجل سلطة مطلقة تظل المرأة فيها تحت رحمته، إن شاء أكرمها وإن شاء عذبها، فما الجواب عن هذا الإشكال؟

الجواب أن الله ﷻ بحكمته وبما يعلم من طبائع عباده، قد ركب في مقابل قوى الرجل قوى أخرى توازيها، وجعلها مسببة للتوازن

القوة الناعمة

لقد ركب الله في الرجل مادة دافعة تؤزّه إلى زوجته وتجعله يأرز إليها ولا يسكن إلا عندها، وهذا المصدر هو المصدر الأقوى في التأثير على الرجل لأنه مصدر فطري لا يمكن أن يقاومه أو يدفعه، فهي الفطرة التي تجره إلى الزواج أصلاً، ولولا تلك الفطرة لما تزوج الرجل ولعاش حياته بدون مسؤوليات الزواج والتزاماته، لكنه الدافع الذي يجعل الرجل يتحمل كل شيء وهو مغتبط.

يقول ابن حزم في وصف هذه القوة: «ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه، وصرفه طباعه قسراً إلى طباع من يحبه، وربما يكون المرء شرس الخلق، صعب الشكيمة، جموح القيادة، ماضي العزيمة، حمي الأنف، أبي الخسف، فما هو إلا أن يتنسم نسيم الحب، ويتورط غمره، ويعوم في بحره، فتعود الشراسة لياناً، والصعوبة سهالة والمضاء كلاله، والحمية استسلاماً؛ وفي ذلك أقول قطعة منها:

[من المتقارب]

فهل للوصال إلينا معادٌ وهل لتصاريف ذا الدهر حدٌ
فقد أصبح السيف عبد القضيْبِ وأضحى الغزال الأسير أسدٌ^(١)

(١) «طوق الحمامة» ص (١٥٣).

ولذلك فإن أعتى الرجال وأشدهم شكيمة يفقد شدته عندما يتعلق قلبه، فتصبح إرادته متعلقة بإرادة محبوبه، ويصبح مسارعا في مرضاته، كما قال الشاعر:

يا من هواه أعزّه وأذلّني كيف السبيل إلى وصالك دُلّني
والأشعار في هذا كثيرة تدل على أن هذه القوة سر من أسرار هذه الحياة، بل فرعون نفسه لم يملك أن قبل بطلب زوجته ورضخ لرغبتها ﴿لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

القوة الناعمة لدى المرأة تتشكل في أنوثتها وعاطفتها وحنانها الذي يأوي إليه الرجل كالطفل في حضن أمه، فيشعر بالأمان ويسكن كسكون الرضيع حين يهدد في المهد، ولا يتحقق له هذا السكون إلا في حضن أمه أو في حضن زوجته، أما الخليفة أو العشيقة فهي لا تعطيه ذلك السكون الروحي، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، بينما وصف سبيل الزنا بأنه سبيل سيء ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

هذه القوة الناعمة تزيد كلما زادت أنوثة المرأة وتقل كلما خرجت واخشوشنت ودهكتها مواطير الحياة ودواليب العمل ومطارق الأعباء، وقد تنعدم تلك الأنوثة عندما تتشبع شخصية المرأة بالأفكار الحداثيّة التي تنفث في روعها أنها مثل الرجل وأن عليها أن تقاوم لتثبت ذاتها عبر القوة الصلبة وعبر الاستغناء التام عن الرجل، فتعتمل تلك الأفكار في نفسها وترشح إلى تصرفاتها وكلماتها وتبدو في خشونة أخلاقها ثم تؤثر على مظهرها وكيميائها، فتموت أنوثتها وتصبح رجلا بشعر طويل، وحين تفقد المرأة الأنوثة، يفقد الرجل فيها ذلك السكن الذي يحتاج

إليه، فهو محتاج إلى أنثى في بيته لا إلى رجل مثله يكون شريكه في السرير.

لقد أثبتت الدراسات أن خروج المرأة إلى سوق العمل يزيد من التنافسية التي تعيشها وهو ما يزيد من إفراز الهرمونات التي تؤدي إلى ارتفاع نسبة التستوستيرون في جسمها مما يجعلها أكثر ذكورة.

أنوثة المرأة هي سر جمالها وجاذبيتها، وكل أنثى جميلة على قدر ما فيها من روح الأنوثة وعبيرها، نعم إن للأنوثة رائحة معنوية يشمها الرجل من بعيد، ولها روح يحس بها في كيانه حتى وهي محتجبة متعففة، إن تلك الحمرة على الخدين وذلك الانكسار في العينين وذلك التعرق في الجبين، هو ما يتم وأده في الفتاة اليوم منذ صباها عبر أنظمة التعليم المختلط، والأفكار التي تطالبها بأن تتخلص من ضعفها الذي هو أساس أنوثتها، أي تتخلص من أساس القوة الناعمة التي هي سر من أسرار الحياة.

لا يمكن لأحد أن ينكر أثر هذه القوة الناعمة على الرجل، بل على أعتى الرجال صلابة وأقساهم قلوبا وأكثرهم وحشية، وحين تقرأ سير الطغاة الذين ملؤوا الأرض دماء والقلوب رعبا، تجدهم أطفالا أمام نساء استطعن أن يكسرن تلك القسوة كلها بليوننة أياديهن وتكسر مشيتهن وتغنج كلماتهن، نعم إنها القوة التي تقهر الرجال.

يمكنني أن أسرد الكثير من الأسماء من شاكلة نابليون وهتلر وغيرهم من الطغاة الذين غلبوا الرجال لكنهم يضمحلون بمجرد دخولهم إلى غرف النوم، واقرأ في تاريخ الدولة العثمانية أو الفرعونية أو في قصص الفرس أو العباسيين، ستجد أن هارون الرشيد كان لا يستطيع رد أمر أمته ولأدة، وهذا سر من أسرار المرأة وقوة جبارة لا يستطيع

أحد إنكارها.

بل إن كثيرا من القرارات التي دمرت بلداناً وشتت ممالك، كان سببها تفضيل الملك لابن إحدى محظياته وتعيينه خليفة له إرضاء لها، وما قصة الأمين والمأمون إلا تجسيد لهذه القوة الناعمة التي كادت أن تقسم أمة الإسلام نصفين.

إن المرأة بالنسبة للرجل سكن واستمتاع، فالسكن متعلق بحاجته الروحية والنفسية، والاستمتاع متعلق بحاجته الجسدية، هذه الحاجة التي هي طاقة مقلقة ملجئة، تجعله متعلقا بهذه المرأة محتاجا إليها، خصوصا في المجتمع المسلم الذي يغلق عليه كل أبواب الحرام، مما يجعله مضطرا إلى تلك المرأة اضطرارا فطريا قاهرا، فتكون تلك الحاجة سببا من أسباب استقرار الأسرة ولزوم الرجل للمرأة، وتحمله إياها، وصبره على ما يكون من أخطائها، بخلاف المجتمعات المائعة التي يجد فيها الرجل المرأة حوله في كل مكان، فتفقد التي في بيته أثرها في نفسه، وسلطتها الناعمة عليه.

لقد جعلته فطرته ضعيفا أمام زوجته، فضمننا بذلك تساوي القوة بينهما، ولقد حاولت الحضارة الغربية أن توهم المرأة أن الزوج هو عدوها الأول، وأن افتقادها للقوة الصلبة سيجعلها لعبة في يد الرجل، وهذا كذب بيّن يكذبه الواقع الذي نعيشه في واقعنا الحالي وفي ماضينا القريب في أغلب المجتمعات التي حافظت فيها المرأة على قوتها: القوة الناعمة.

لقد تحولت هذه القوة الناعمة إلى أثر ظاهر معترف به لدى كثير من الشعوب التي لا يملك الرجل أن يتخذ قرارا دون مشاورة أهله، بل في كثير من الأحيان تصبح الزوجة هي من يملك القرار في المال والأبناء وكل شيء، فكانت المرأة إلى وقت قريب تسمى في مجتمعاتنا:

«مولات الراي والشوار»، واشتهرت كثير من المجتمعات بأن رجالهم خاضعون لنسائهم، مع أن المرأة في تلك المجتمعات لا تمتلك إلا قوتها الناعمة، ومن خلال قوتها الناعمة تمتلك أموال الزوج كاملة ويأتيها بكل راتبه تقرر فيه ما يكون وما لا يكون، حتى تكون كأنها هي المنفقة عليه لا هو.

الرجل بالنسبة للمرأة حاميتها والمنفق عليها، وهي بهذا في حاجة ماسة إليه، ففي نظر الإسلام لا تحتاج المرأة إلى أكثر من أنوثتها لتستحق حياة كريمة ومكانة اجتماعية تحقق بها ذاتها بالمصطلح المستخدم اليوم، فتحقيق ذات المرأة واستقلاليتها تكون بزوجها وأبنائها الذين هم أيضا أساس من أسس معادلة الاستقرار الأسري، فاحتياجها للقوة الصلبة التي لدى الرجل يزيد في ارتباط هذه الأسرة وتماسكها، فهي ترى في الرجل حاميتها وسبب عيشها وعيش أبنائها، وبالتالي تتحمل منه ما قد يكون من أخطاء وهفوات، تماما كما يتحمل الموظف تجاوزات مديره رغبا ورهبا.

إننا حين نفهم طبيعة هذه القوة وأثرها في العلاقة الزوجية نضمن أن لدى هذه المرأة من القوة ما يكافئ قوة الرجل، فنضمن بذلك توازنا في القوة بينهما، ونضمن هذا التكامل الذي هو سر التساخر المشار إليه بقوله تعالى: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] وبالتالي فإننا نأمن على المرأة من تسلط هذا الرجل، بل نوشك أن نخاف عليه من تسلط قوتها الناعمة وتأثيرها على قراره، فما أذهب للرجل الحازم من المرأة.

القوة الأخلاقية

لا شك أن الإنسان خاضع للقوة الأخلاقية، متأثر بها، ساع إلى تحصيل الكمالات الأخلاقية بطبيعته الساعية إلى المجد والنبيل، هذا وإن كان الناس يختلفون في شدة تأثير القوة الأخلاقية في نفوسهم إلا أننا لا نشك في أن لها أثرا في مواقف الإنسان وتصرفاته، وكلما زاد هذا الأثر كلما زاد خضوع الإنسان له .

إن القوة الأخلاقية مؤثرة في العلاقة الزوجية، بل هي شرط من شروط تزويج الرجل، فقد قال ﷺ «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه»^(١)، أي أن المعول عليه في التزويج هو الخلق لأن الخلق هو الضامن للمعاشرة بالمعروف، ولذلك جاء عن الحسن رضي الله عنه: «زوجها ذا الدين فإنه إن أحبها أكرمها وإن كرهها لم يظلمها»^(٢).

إن الرهان على القوة الأخلاقية هو رهان أساسي لضمان التوازن داخل الأسرة، أما أن نراهن على القوة القانونية فهذا فشل اجتماعي وقع فيه الغرب ثم صدره إلينا، فالقانون لا يستطيع أن يقيم شرطيا داخل المنزل يراقب الزوجين، لكن القوة الأخلاقية تستطيع ذلك، فهي محرك أساسي للإنسان، وضابط لتصرفاته، وعلى المجتمع أن

(١) حسن: رواه الترمذي (١٠٨٤)، وابن ماجه (١٩٧٦)، والحاكم (١٩٧/٢)، وحسنه الشيخ الألباني.

(٢) «العقد الفريد» (٧/١٠٧).

يعيد إلى هذه القوة اعتبارها من خلال التربية الحسنة والتعليم الجيد والإعلام الموجه، وهذا ما سيؤثر بشكل مباشر على العلاقة الزوجية، فالرجل المتخلق والمرأة المتخلقة لديهما من القوة لأخلاقية ما يحجز كلا منهما عن ظلم الآخر أو التفريط في حقوقه.

إن فشل المجتمع في بناء الأخلاق لا يؤثر فقط على الأسرة بل يؤثر على جميع مناحي الحياة، فيفشل التعليم والاقتصاد ويستشري الفساد في كل شيء، لذلك فإن فشل المجتمع في بناء الأخلاق لا يمكن حله من خلال التركيز على العواطف في الحياة الزوجية فقط، العواطف نتيجة وليست سببا.



القوة الدينية

الإنسان كائن متدين بطبعه، والبعد الديني مؤثر في سلوكياته وانفعالاته، لذلك فقد أسس الإسلام منظومة حماية متكاملة تضمن عدم تسلط الرجل على المرأة وظلمها إلا في الحالات التي يضعف فيها هذا الوازع إلى حد بعيد، وأول تلك النصوص قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ (٢٤) [النساء].

□ قال الشوكاني: «إشارة إلى الأزواج بخفض الجناح ولين الجانب؛ أي: وإن كنتم تقدرون عليهن فاذكروا قدرة الله عليكم فإنها فوق كل قدرة، والله بالمرصاد لكم» (١).

□ وقال البقاعي: «أي له العلو والكبر على الإطلاق بكمال القدرة ونفوذ المشيئة، فهو لا يحب الباغي ولا يقره على بغيه، وقدرته عليكم أعظم من قدرتكم عليهن وهو مع ذلك يعفو عن عصاه وإن ملأ الأرض خطايا إذا أطاعه ولا يؤاخذ به شيء مما فرط في حقه بل يبدل سيئاته حسنات، فلو أخذكم بذنوبكم أهلككم، فتخلقوا بما قدرتم عليه من صفاته لتنالوا جليل هباته، وخافوا سطوته واحذروا عقوبته بما له من العلو والكبر» (٢).

(١) «فتح القدير» (٥٣٢/١).

(٢) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٥٣/٢).

وهكذا يجد المؤمن نفسه أمام الكثير من النصوص التي تؤكد على الإحسان إلى الزوجة والوصاية بها كقوله ﷺ: «اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»^(١)، فحين يعتمل هذا النص في حياة المؤمن فإنه لا يستطيع أن يؤذي أمانة الله عنده أو يعاملها بما لا تستحق.

لقد جعل الله ﷻ الصلاح أساس الزواج، فقال ﷻ: «وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ» [النور: ٣٢]، وقال ﷻ: «إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه»^(٢)، فدل ذلك على أن التدين أساس الاختيار، وذلك لضمان فعالية هذه النصوص وغيرها مما يضمن لنا توازنا داخل الأسرة، فلا يطغى الزوج وهو يعلم أن الله يراه، وقد مر معنا أن رجلا سأل الحسن فقال له: إن عندي ابنة لي وقد خطبت إلي فمن أزوجها؟ قال: «زوجها من يخاف الله فإن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يظلمها»^(٣).



(١) رواه مسلم (١٢١٨).

(٢) حسن: وقد تقدم.

(٣) «العقد الفريد» (١٠٧/٧).

القوة الاجتماعية

لقد نظم الله العلاقة الزوجية بنظام مركب يحفظ على المرأة كرامتها ويضمن حمايتها من أي انفلات، فإذا كانت تلك القوى السابقة قوى داخلية، فإن القوة الاجتماعية قوة خارجية تزيد في حفظ هذه المنظومة وحمايتها من رعونات النفس وطغيانها، فإن الزوج مرتبط بقوة اجتماعية هي التي ضمنت له الحصول على هذه الزوجة ضمن مفهوم الولاية الذي يجعل الحصول على الزوجة لا يتم إلا بموافقة ولي أمرها، الذي هو صمام أمان للعلاقة الزوجية، حيث تبقى تلك الرابطة الاجتماعية حاضرة منذ اليوم الأول للزواج، فهو قد تزوج ابنة فلان، وليس فتاة قابلها يوما ما في شارع أو مقهى.

إن هذا الترابط الاجتماعي يحيط العلاقة بهالة اجتماعية تجعل مكانة الرجل مرتبطة بمكانة الأسرة التي تزوج منها، وكما جاء في الأثر: «ما رفع المرء نفسه بعد الإيمان بالله من منكح صدق»^(١)، فارتباط الإنسان بمجتمعه يجعل علاقة الزوج محاطة بلائحة من «الينبغيات» العرفية، التي تجعل صورته في المجتمع مرتبطة بالصورة التي سيرى الناس عليها زوجته.

فلباسها وحليها وحسن مظهرها هو مما يعتني به الرجل ليحظى

(١) «عيون الأخبار» (٤/٤).

بالاحترام اللازم في تلك البيئة التي يعيش فيها، فزوجة فلان لا بد أن تكون في عيش لائق ومنظر لائق وحلي لائق حتى لا يعيبه الناس . إن هذه القوة مؤثرة إلى حد كبير، بل هي مؤثرة إلى حد الإرهاق أحيانا، فتجد الرجل يتكلف من أجل أن تُرى زوجته في العرس بمظهر معين، وتجد هي في كلمة «ماذا يقول عني الناس» سلاحا تضغط به على العقل اللاواعي عند الرجل، فيسارع في توفير ما قاله الناس، ويصبح هذا ضامنا لها أسلوب عيش ودرجة من الإكرام تتناسب مع بيئتها ومكانتها الاجتماعية .

كما تظهر القوة الاجتماعية في أسرة الزوجة ومكانته هو بين أصهاره، فأبوها وإخوانها يمثلون جيشا خفيا يحضر في وجدانه في كل لحظات الخلاف، فلا يستطيع أن يتجاوز حدوده معها، بل أحيانا تطفئ عليه بإخوانها وأبيها وتهدهده بهم في صورة من صور القوة الخفية التي مكن الله منها المرأة لتحافظ على توازن القوى داخل أسرتها .

ونحن هنا لا نحكم على هذه التصرفات إنما نحاول أن نفهم أسرار التوازن في العلاقة بين الرجل والمرأة، وحين نفهم ذلك، نسلم المرأة للرجل ونحن واثقون من أن الله قد أودع فيها من القوى ما يمكنها من خلق التوازن، بل كما أثبت الواقع فإن القوة تميل في كثير من الأحيان لصالح المرأة حتى يصير الرجل أمامها بلا رأي ولا قرار، وصدق رسول الله ﷺ حين قال «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن»^(١) .

(١) صحيح: وقد تقدم .

لماذا لا نكلف المرأة بمهام الخليفة؟

المرأة لا تناسبها أعمال الخليفة لأنها في الأصل لم تخلق لهذه المهام، ولم تنصب في منصب الخليفة، وإنما خلقت لمهمة أن تكون سكناً للخليفة، ومقدماتنا نحو هذه النتيجة سبقت في المقالات السابقة.

فلماذا خلقت إذن؟ لكي تأكل وتشرب ويستمتع بها الرجل؟ وتكون جارية تبيض وتفرخ؟

نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال الآن، ولكن نستطيع أيضاً أن نطرح السؤال نفسه على السائل: لماذا خلق الرجل إذن؟ أليتعب ويشقى ويجمع المال لتنفقه هي في الأسواق على الماركات؟ وتزين بالذهب في المناسبات؟ وتنعم بالرحلات والسفريات؟

والجواب الصحيح على السؤالين معاً: إن هذا سر من أسرار الخلق رتب الله به العلاقة لكي يخدم الرجل المرأة كأنه خادم يضارب في الأسواق لسيدته ويأتيه بالربح آخر النهار، وهي في المقابل تخدم زوجها طاعة لله وقربة للزوج، كل ذلك في إطار من المودة والرفق والمعاشرة الحسنة حتى يقطعاً معاً قنطرة الحياة الدنيا إلى الحياة العليا.

المرأة يشق عليها أن تعمل للتكسب، وإذا كلفناها بالعمل ظلمناها من جهات كثيرة:

١ - ظلمناها إذ كلفنا جسدها الضعيف ما لا يطيق؛ خصوصاً حين تكون

تحت تقلبات الجهاز العصبي وأمزجة الدورة الدموية ومراحل الحمل .

٢ - ظلمناها إذ كلفنا تلك البشرة الناعمة أن تتعرض للشمس والحر والرطوبة مما يؤدي إلى تبذير ذلك الجمال وتضييع ذلك الحسن، وبالتالي تفقد المرأة جزءا كبيرا من جمالها وتتناولها يد السنين .

٣ - ظلمناها إذ كلفناها بمهمتين في هذه الحياة مهمة الحمل والولادة والتربية وإدارة البيت، ومهمة الاكتساب والسعي والتي هي من مهام الرجل، فحملناها مهمة الرجل ولم نستطع أن نحمل الرجل مهامها، فهو لن يحمل عنها مشقة الحمل والولادة والرضاعة .

٤ - جعلناها عرضة للتحرش والاستغلال المادي والمعنوي وهو ما لا يسلم منه مجتمع بشري على وجه الأرض .

٥ - أرغمناها على الاستجابة لمطالبات سوق العمل والتي ستؤدي إلى إرغامها على إبداء شيء من جمالها حسب ما يطلبه صاحب العمل والزبون، وهذا نوع من أنواع البغاء الحديث، حيث تنال المرأة وظيفتها بسبب ما تبدي من محاسنها، (على سبيل المثال مضيفات الطيران وعارضات الأزياء) .

٦ - ظلمناها إذ أبعدناها قسرا عن رضيعها وهو في أمس الحاجة إلى حليبها الذي تحمله في ثديها وهي ذاهبة وعائدة من العمل، فالثديان شعار الأمومة، وضياع ذلك الحليب ضياع لقطرات من الأمومة لرضيع هو في أمس الحاجة لكل قطرة ولمسة من أمه .

٧ - ظلمنا ذلك الطفل وجعلناه يعيش اليتيم بعيدا عن أمه، فلا يراها إلا سويغات في اليوم .

إن تكليف المرأة بالعمل من أجل الرزق ظلم كبير وقع فيه المجتمع، مما جعلها تحت ضغط الأعراف ملزمة بأن تعول نفسها

وأسررتها، وبالتالي أصبحت أمام تحد كبير فإما أن تنجح وتكتسب لقمة عيشها بيدها أو تصبح في نظر المجتمع عبئا ثقيلا لا فائدة فيه، وهنا تصير المرأة أمام تحدي الرزق الذي تستصغر من أجله كل القيم والمبادئ، بل تضطر من أجل لقمة العيش إلى نزع الحجاب والملاطفة بالكلام وربما اضطررت إلى أكثر من ذلك حين تكون المعادلة: إما أن تمكينني من نفسك وإما أن أفصلك من العمل.

صحيح أن هناك من تستطيع أن تقاوم مثل هذه الضغوط لكن الظلم الكبير هو أن نضعها أصلا تحت هذا الضغط حتى تجد نفسها في بعض الحالات مضطرة إلى أن تلوح بقوتها الناعمة وجمالها من أجل أن تحظى بفرصة عمل أو ترقية وهذا شيء معروف لا ينكره إلا مكابر، ولو تطلبنا مجتمعا فاضلا لا يستغل فيه مدير منصبه فإننا نتطلب مجتمعا خيرا من مجتمع الصحابة، فإن الحاجة والفقر تطغي صاحب المال وتغريه باستغلال ماله لقضاء وطره، ودونك قصة صاحب الغار مع ابنة عمه، حيث امتنعت عليه، لكن حين أصبحت تحت ضغط الحاجة سلمت نفسها إليه ^(١).

حين نضع المرأة والرجل في نفس المضمار من أجل اكتساب لقمة العيش فإن المرأة في تنافسها حول المناصب قد يسبقها الرجل فتلجأ إلى ذلك المؤهل الذي يمتلكه هي ولا يمتلكه هو، تستخدم قدراتها لإغراء صاحب العمل كي تفوز هي بالصفقة أو تضمن الترقية. وحين تخرج المرأة للعمل فإنها تنال منصبا كان من الممكن أن يناله رجل، وقد تقول ما المشكلة في ذلك، هي نالت منصب عمل كان يمكن أن يناله رجل، وهي تنفق كما كان هو سينفق.

(١) رواه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

والجواب أن الرجل حين يحصل على عمل يستطيع أن يفتح أسرة، ويستطيع أن يطرق الباب للزواج، أما المرأة فهي وإن امتلكت العمل فإنها لا تمتلك قرار تأسيس أسرة، بل تنتظر إلى أن يأتيها الزوج، بخلاف الرجل الذي هو صاحب الشأن والذي يملك قرار فتح البيت، فالوظيفة التي ينالها رجل تساوي تأسيس أسرة وإعالة ما يمكن أن يصل إلى خمسة أفراد، بينما الوظيفة التي تنالها الأنثى تكون سببا في حرمان رجل من العمل وبالتالي تفوّت على المجتمع فرصة تكوّن أسرة جديدة، أي أن وظيفة المرأة تعطينا رجلا عاطلا وبالتالي امرأة عانسا، وتحرم المجتمع من أسرة جديدة.

تتأخر المرأة في إدراك هذه الحقيقة ولا تكتشف ما وقع عليها من الظلم بسبب إخراجها إلى العمل إلا في مرحلة متأخرة حين يتقدم بها السن وتمل من كثرة الوقوف في طوابير الحافلات، مضطرة كل صباح إلى الخروج دون رحمة من أحد، عند ذلك فقط تدرك كم هو ظالم هذا المجتمع، تدرك ذلك وقد فاتها كثير من فرص الزواج التي لم تستطع أن تتخلّى عن حلمها لأجل ذلك العريس الذي خوفوها منه ومن سيطرته، فهربت من الزوج إلى المدير، فكان المدير أقسى من الزوج، لأنها لا تمتلك ضده سلاحها الناعم.

نعم إنه لمجتمع ظالم: المجتمع الذي يكره المرأة على العمل...
قد تقول لي إن خديجة عليها السلام كانت تعمل، وهذه مغالطة، فخديجة عليها السلام ما كانت تخرج في القوافل لشراء السلع، ولا تقف تصرخ بها على الناس في الأسواق، ولا كانت تزاحم الرجال في وسائل السير، ولا كانت تركب بعيرا في قافلة أبي سفيان تقطع صحراء نجد إلى الشام، لقد كانت صاحبة مال تضارب بمالها، ومعنى تضارب بمالها أي تعطي مالها لمن يتاجر فيه، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ حين عمل

لها في مالها، فسافر في القوافل واشترى وباع، بأبي هو وأمي صلوات
 ربي وسلامه عليه، وهي جالسة في بيتها معززة مكرمة.
 نحن لا نحرم العمل على المرأة المضطرة التي لا تجد من ينفق عليها،
 لكننا نعتبره ظلما اجتماعيا يؤدي إلى تشقق بنية المجتمع وتشتت
 نواته الأولى: الأسرة.

نعم، يجوز للمرأة أن تعمل إذا لم تجد من يقوم بنفقتها، لكننا
 نعتبر أن خروجها للعمل هو وضع غير سليم دفعناها إليه ضرورة معينة
 أو حاجة إلى تخصص لا يمكن أن يقوم به الرجل، وهنا لا بد لنا من
 مراعاة أن لا يتعارض عملها مع وظيفتها الأساسية، ولا يشغلها عن
 أطفالها ولا يعرضها للخطر الأخلاقي.



ألم تجاهد النساء مع رسول الله ﷺ؟

لقد رأينا أن المرأة قد ساهمت في الجهاد، وكانت مع الرسول ﷺ في كل مواقفه، فكيف نفسر ذلك، وهل انتقلت المرأة من سكن للخليفة إلى قائم مقام الخليفة؟

لا يخفى أن المرأة ساهمت مع الرسول ﷺ في بعض معاركه، لكن هل كان هذا هو الأصل أم أنه استثناء دعت إليه ضرورة مرحلية؟ ويمكن أن نجيب بوضوح عن هذا السؤال من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية:

متى جاهدت المرأة؟

كم من النساء جاهدن؟

هل استقر الحال على ذلك؟

أولاً: متى جاهدت المرأة؟

تقول أم عطية الأنصارية: «غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أخلفهم في رحالهم، فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى»^(١).

وعن الرُبَيْع بنت معوذ، قالت: «كنا مع النبي ﷺ نسقي ونداوي الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة»^(٢).

(١) رواه مسلم (١٨١٢).

(٢) رواه البخاري (٢٨٨٢).

وعن أنس بن مالك، قال: «كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم، ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء، ويداوين الجرحى»^(١).
فالرسول ﷺ غزا ٢٨ غزوة، ولم تصحبه أم عطية إلا في ٧ غزوات، وكانت جلها في بداية الإسلام، ولذلك كان خروجهن استثناء فلم يكن في عداد المجاهدين الذين يضرب لهم بسهم في الغنيمة: فعن يزيد بن هرمز: «أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن خمس خلال، فقال: ابن عباس: لولا أن أكتم علما ما كتبت إليه، كتب إليه نجدة: أما بعد، فأخبرني هل كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء؟ وهل كان يضرب لهن بسهم؟. فكتب إليه ابن عباس: كتبت تسألني هل كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء؟ وقد كان يغزو بهن، فيداوين الجرحى، ويحذين من الغنيمة، وأما بسهم فلم يضرب لهن»^(٢). فلو كن من ضمن الجيش لما ساغ أن يمنعن حظهن من الغنيمة.

ولذلك لم تخرج النساء في غزوة تبوك ولا كن في سرايا التي يثبها الرسول ﷺ للقتال، وكل من ظن أن النساء كن يقاتلن ويستعان بهن في الجهاد فهو مخطئ، فلقد جمع الرسول ﷺ النساء يوم الخندق في أطم من أطام المدينة، ولو كن يقاتلن لاستعان بهن في معركة من أشد المعارك على المسلمين، بلغت فيها القلوب الحناجر وكانوا في أمس الحاجة إلى من يقاتل معهم ولو برمي النبال من وراء الخندق.

❦ ثانيًا: كم من النساء جاهدن مع رسول الله ﷺ؟

لقد ذكر من النساء اللواتي جاهدن مع رسول الله ﷺ:

١ - أم عطية نُسِبة بنت كعب: خرجت مع الرسول ﷺ في بعض غزواته^(٢).

(١) رواه مسلم (١٨١٠).

(٢) «الإصابة» لابن حجر (٤٤٢/٨).

٢ - أم عمارة: فقد خرجت مع زوجها وأبنائها محفوفة بهم تحمل الماء ولوازم العلاج لتسقي الجيش وتعالج المرضى، وروي أنها قتلت في غزوات أخرى إلى أن قطعت يدها يوم اليمامة، لكنها كانت حالة نادرة في القوة والطاقة، حتى قال لها رسول الله ﷺ «ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة»^(١).

٣ - أم سليم بنت ملحان: فقد خرجت مع زوجها يوم حنين، وحملت خنجرا، فعن ثابت عن أنس قال: أن أم سليم اتخذت خنجرا يوم حنين فقال: أبو طلحة يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر! فقالت: يا رسول الله إن دنا مني مشرك بقرت به بطنه، فأجابها رسول الله ﷺ بما يدل على عدم حاجتها إلى ذلك فقال: «إن الله قد كفى وأحسن»^(٢). فلم يثبت أنها قتلت وإنما خرجت في رفقة زوجها أبي طلحة، وتحوطت باتخاذ ذلك الخنجر في حال انهزم المسلمون، بل الذي يظهر من سياق القصة أن زوجها أبا طلحة استنكر حملها للخنجر فبادرت إلى الجواب كالمعتذرة عن حملها، وإلا فلم يكن من المعقول أن يسأل رسول الله ﷺ صحابيا لماذا يحمل سيفه في مثل ذلك اليوم.

٤ - أم عطية الأنصارية: فقد كانت تخرج للسقي ومداواة المرضى وغير ذلك من الأشغال^(٣).

٥ - أم حكيم المخزومية: فقد روي أنها قتلت بعمود خيمتها سبعة من الروم، وهذا مما رواه أهل التاريخ ولا يجزم بصحته خصوصا أن هذا مما يبعد وقوعه عقلا^(٤).

(١) رواه مسلم (١٨١٢).

(٢) رواه مسلم (١٣٤).

(٣) رواه مسلم (١٨١٢).

(٤) انظر: «معجم الطبراني» (١٥٧/٢٤).

فهذه أسماء من عرف منهن خروج للجهاد، ويمكن أن نضيف صفة عمه رسول الله ﷺ التي نزلت إلى اليهودي الذي تسلل إلى الحصن في غزوة الخندق، فقتلته وأخذت سلبه.

إن نظرة إجمالية إلى هذا الفرق الكبير بين جهاد الرجل وجهاد المرأة والفرق بين الرقم عشرة آلاف الذين فتح بهم رسول الله ﷺ مكة، وثلاثون ألفا الذين خرجوا معه في غزوة تبوك، وبين عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة من النساء، هذا الفرق في العدد يدل على أن الشريعة الإسلامية قد أعفت المرأة من أعباء القتال، وهو ما أكدته الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين استأذنته في الجهاد فقال: «جهادكن الحج». وفي رواية: «عليكن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة»^(١).

وعن أم ورقة بنت عبد الله بن نوفل الأنصارية: أن النبي ﷺ لما غزا بدرًا. قالت: قلت له: يا رسول الله، ائذن لي في الغزو معك أمرض مرضاكم، لعل الله أن يرزقني شهادة. قال: «قري في بيتك فإن الله تعالى يرزقك الشهادة». فكانت تسمى الشهيدة^(٢).

وكلهن خرجن مع أزواجهن.

□ يقول الشيخ عبد العزيز الطريفي: «فالمقطوع به أن أزواجهم معهم، يبتن حيث يبيتون، ويرتحلن حيث يرتحلون، وأي ضرر في ذلك، ولا يتخيل أن أزواجهم في المدينة والنساء يخرجن للجهاد، وإذا كان كذلك والمرأة حال السفر مع زوجها ترحل وتنزل، وعند التحام الصفين تكون النساء في الخلف، والمرأة منهن تعين الجريح المشخن لا

(١) رواه البخاري (٢٨٧٥).

(٢) حسن: رواه أبو داود (٥٩١)، وحسنه الشيخ الألباني.

المعافى الصحيح، وما الضير في ذلك، ولا يعدو هذا كونه سفرا من الأسفار، فالنساء يذهبن للحج والعمرة قوافل والنساء مع رجالهم ^(١).

ثالثاً: هل استقر الأمر على ذلك؟

الذي يظهر من جمع الأحاديث وعمل الصحابة أن الرسول ﷺ لم يأذن للنساء في الخروج للجهاد في آخر الأمر، حتى لمجرد السقي والعلاج، فعن أم كبشة قالت: يا رسول الله، ائذن لي أن أخرج في جيش كذا وكذا. قال: لا. قلت: يا رسول الله، إني لست أريد أن أقاتل، إنما أريد أن أداوي الجريح والمريض، أو أسقي المريض. فقال: «لولا أن تكون سنة، ويقال: فلانة خرجت، لأذنت لك، ولكن اجلسي» ^(٢). وفي رواية: «اجلسي، لا يتحدث الناس أن محمداً يغزو بامرأة» ^(٣).

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: استأذنت النبي ﷺ في الجهاد، فقال: «جهادكن الحج» ^(٤). وهذا عام في كل جهاد.

فلماذا تهمل هذه الأحاديث مع أنها متأخرة عن الأحاديث الأولى، حتى ذهب بعض العلماء إلى أنها ناسخة لها، مع أنه لا حاجة للقول بالنسخ، فالنبي ﷺ نهى للمرأة عن الجهاد والخروج لمداواة الرجال في أصل التشريع وإنما أباح لها ذلك للضرورة وقلة الرجال.

فالاحتجاج بحالات الضرورة كاحتجاج بجواز التبرج بحديث أنس رضي الله عنه، قال: «لما كان يوم أحد، انهزم الناس عن النبي ﷺ، قال:

(١) «الاختلاط» ص (٦٨).

(٢) صحيح: رواه الطبراني (٤٣١).

(٣) صحيح: رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢٣٨/٨).

(٤) رواه البخاري (٢٨٧٥).

ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم وإنهما لمشمرتان، أرى خدام [موضع الخلخال] سوقهما [جمع ساق] تنقزان القرب»^(١). فهل يستدل بانكشاف ساق أم سليم وعائشة على جواز كشف سوق المسلمات؟! . مع أن الموقف موقف حرب وكر وفر وخوف وذعر. لذلك فإن مسألة جهاد النساء كانت مسألة فرضتها الضرورة ثم ارتفعت بارتفاعها.

□ جاء في «الموسوعة الفقهية»: «الجهاد إذا كان فرض عين بأن دهم العدو بلدًا من بلاد المسلمين، فإنه يجب على كل قادر على حمل السلاح والقتال من أهل ذلك البلد رجلاً كان أو امرأة أو صبيًا أو شيخًا، وأما إذا كان فرض كفاية فإنه يجب على الرجال فقط، وأما المرأة فلا يجب عليها لضعفها اتفاقًا»^(٢). فالجهاد كالعمل المختلط إنما يباح للضرورة، والله أعلم.



(١) رواه البخاري (٢٨٨٠)، ومسلم (١٨١١).

(٢) «الموسوعة الفقهية الكويتية» (١١٩/٢٢).



أما الزمان المناسب، فهو حين تتجاوز المرأة مراحل الشباب والفتنة، وحين تؤدي حق أطفالها وأسرتها، فيمكن أن تدرس الطب بعد الأربعين، فتكون المخاطر عليها أقل، وتضرر الأسرة بخروجها

أخف، لما يمكن أن يكون قد وصل إليه أطفالها من الاستغناء عنها، وقد أشار الفقهاء إلى هذا المعنى في تفريقهم بين الشابة والمتجالة، أي المرأة الكبيرة التي يؤمن منها ويؤمن عليها، وهي وإن كانت لم تبلغ درجة القواعد من النساء، إلا أن الخطر عليها أقل من الخطر على الشابة، والضرر من خروجها أقل لعدم تعلقها بحقوق الأطفال والأسرة. وأما المكان المناسب فلا يخفى أن افتراض تعلم النساء في بيئة مختلطة غير مقبول في الشريعة الإسلامية تحت أي ذريعة، ولو جاز ذلك لما خصص الرسول ﷺ يوماً لتعليم النساء، ولشملهم بالتعليم في مسجده ﷺ، أما في غير وجود المكان المناسب والزمان المناسب فإن خروجها للتعلم أو العمل يعتبر قلباً لأولويات الشريعة، وضرباً لأهم أساسات المجتمع المسلم.

خير فيمن لا يغار»^(١).

ولذلك فإن عمل المرأة يباح إذا لم يؤثر على:

- بيتها وحق أطفالها وزوجها فلا يأخذ جزءا كبيرا من وقتها
- دينها وعفافها، فلا يعرضها للتزامل والاختلاط بالرجال
- قرارها في بيتها، فلا يلزمها الخروج من المنزل

وهذا هو ما كانت تعمله المرأة قديما، فقد كانت تحيك الثياب وتنسج النسيج وتدبغ الجلود، وهذه الأعمال لم تكن تتطلب منها ابتعادا عن أطفالها ولا تفريطا في حق بيتها وزوجها ولم تكن تجعلها تحتك بالرجال، ولم يكن لديها مدير وزميل وزبون.

وأما ما تدعو إليه الضرورة كمزاولة مهن الطب والتمريض، فهذه تقدر بقدرها، ويهيأ لها من يقوم بها وفق ضوابط شرعية تتناسب ومقاصد الشريعة الإسلامية التي تقدم حفظ العرض على النفس والمال. إن الفقه الإسلامي قادر على إيجاد بيئة كاملة تسد حاجة المجتمع من النساء العاملات، واللاتي لن يتجاوزن في مجتمع سليم أكثر من ثلاث إلى خمس بالمئة، ويمكن عند ذلك توفير كلية خاصة للنساء تدرسن التخصصات اللازمة في طب النساء والتوليد، بعد أن يكن اجتزن مرحلة الخطر وأمن مستقبل أطفالهن، أما أن نأخذ المرأة من بيتها وأطفالها، ففي هذا مزاحمة للحقوق.

كما يمكن أن نعتبر هذا المطلب اليوم مطلبا وهميا لوجود آلاف من النساء العاملات في المجالات التي نحتاجها، أي أننا يمكن أن نناقش المسألة بعد خمسين سنة من الآن حين تتقاعد كل هؤلاء النسوة.

(١) «الاختلاط» ص (٦٩).

احتقار الأمومة

إن مشكلة المرأة اليوم في احتقار المجتمع لدورها كأم، فالصورة الجمعية توحى إليها أن وجودك في البيت للقيام بدور الأمومة هو تخلف وتخل عن الدور العظيم الذي يمكن أن تقوم به المرأة.

فإذا تشبع المجتمع بهذه الفكرة، أخرج المرأة إلى ميدان العمل، وهنا تتحول الكرة إلى ملعب رأس المال، الذي يحدد للمجتمع منظومة عيشه ومنظومة قيمه، فيصبح التعليم واللباس وتقسيم الوقت بل حتى تحديد عمر الزواج، كل ذلك تابع لرأس المال وما يطلبه العميل، وهنا يصبح الخطاب الشرعي عاجزا عن الفاعلية في المجتمع، فلا صوت إلا للمال وسوق العمل.

وعند ذلك تترتب أوليات المرأة حسب هذا المطلب، ويصبح الحلم الوحيد، ويتحول الزواج من مطلب إلى عائق دون تحقيق الذات، فنسلم بناتنا وأخواتنا للمدراء، وننتظر عودتهن في آخر النهار، ويصبح لدينا هذا المجتمع الجديد الذي لا مكان فيه للأمومة والطفولة ومفاهيم الحياء والقرار وعدم الخضوع بالقول، فميدان العمل لا يتحمل هذه المعاني.

تجدنا نقول، هي فقط ربة بيت، بينما نقول: هو طبيب أسنان، هي أستاذة جامعية، هي ممرضة مستشفى، فلماذا لم تدخل كلمة فقط إلا

على ربة بيت، لأننا لا نعتبر الإنسان إنساناً إلا إذا كان منتجاً، أما الأمم وبناء الإنسان فهذا لا قيمة له اليوم .
 إن احتقار الأمم ينشأ عن عقيدة دفينه بالمساواة، ولذلك أثبت القرآن التفاضل حتى لا تتسلل المساواة إلى قلب المرأة، فمتى ما تشبع القلب بفكرة المساواة، احتقرت المرأة نفسها ووظيفتها ووضعت سقف مطالبها: أن تكون كالرجل . وفي ذلك هلاكها .



المرأة والأحلام الوهمية العظيمة

حين تشبع المجتمع بفكرة احتقار الأمومة، أصبحت المرأة تبحث عن مجالات أخرى تثبت من خلالها جدواها في هذه الحياة، ومن هنا ولدت هذه المجتمعات القاسية التي فقدت حنان الأمومة.

إننا حين نقيّم أداء المرأة داخل البيت، نجد أنها تبذل جهدا كبيرا يتمثل في مجموعة من المواقف والمشاعر والتصرفات التي تحتاج منها حوالي عشر ساعات كل يوم، وعليه فإن المجتمع السليم هو الذي فيه عدد أمهات يعطي الساعات الكافية من الحب والحنان.

فلو افترضنا مجتمعا فيه ١٠٠ طفل، فإن كل طفل بحاجة إلى ٣٠٠ ساعة أمومة في الشهر، أي أن ذلك المجتمع بحاجة إلى ٣٠٠٠ ساعة أمومة شهريا حتى نضمن كمية الحنان الكافية التي يحتاجها ذلك المجتمع ليحافظ على مستوى التراحم الذي يجعل منه مجتمعا سليما.

وكلما نقصت ساعات الأمومة جودة أو كمية كلما ظهر ذلك في سلوكيات الأفراد التي تشكل ذلك المجتمع.

إننا حين نرسم للمرأة أحلاما عظيمة كما نتصورها، فإننا في الحقيقة نأخذ من هذه الساعات أغلبها، كما نأخذ منها تركيزها ونرتب لها أوليات عيشها، ونؤخر الزواج بل نحوله إلى عائق دون تحقيق تلك الأحلام، ولو نظرنا إلى ماهية تلك الأحلام فإنها في الأخير أحلام الاستخلاف التأسيسي الذي هو من مهام الخليفة، فنشغلها بالتالي

عن مهام الاستخلاف التكميلي التي هي مهام سكن الخليفة .
إن العنوسة المنتشرة اليوم، لم تأت من فراغ إن من أسبابها هذه
الأحلام التي جعلت الفتاة تتأخر في الزواج، بل جعلت كثيرا منهن
تعزف عن الزواج بالكلية، فالمجتمع الذي كان يجعل نجاح المرأة
في نوع الزواج الذي حصلت عليه، أي أن النجاح يبدأ من الزواج،
هذا المجتمع لم يعد كذلك، وبالتالي فالمكانة الاجتماعية التي
كانت تحصلها الفتاة من الزواج أصبحت تحصل عليها من الوظيفة،
لقد أصبح الزواج ثانويا في حياتها حين أصبح لديها حلمٌ عظيم تجري
وراءه، لقد فتنها حلم أن تصبح الخليفة، فأُنْفَتُ أن تكون سكن الخليفة .





المرأة والرجل واتحاد الهدف



إن الزوج حين يقوم بهدفه التأسيسي الذي يدور غالبا حول تأسيس نواة هذه الأسرة وضمان امتدادها في التاريخ عبر التوريث لضمان استمرار حياة النسل في وضع أفضل، فإن الزوجة مهيأة لدعم زوجها في تحقيق هذا الهدف وتمكينه عبر نظرية التدثير التي تشمل تسكين روع الزوج وطمأنته وإعطاءه الحافز، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ [المدثر]، وكلنا يعلم أن خديجة هي التي دثرت، فقد قامت بدور التدثير الذي يشمل البعد المادي والمعنوي لدعم زوجها ونصرته والإيمان به .

لذلك كان الحافز الذي تعطيه المرأة لزوجها أعظم حافز يدفعه للإنجاز، حتى إنه لا يكثر كثيرًا لغيره من الحوافز إن فقدته، بل كل الحوافر إنما تأخذ معناها حين تصفق لها الزوجة .

إذن: تتحد الأسرة في هدف واحد لتصبح أسرة أحادية الهدف، لديها هدف كبير يسعى الزوج لتحقيقه، وتسعى الزوجة لدعمه ليصل إلى ذلك الهدف .

إن العيش لهدف مشترك، والسعي لتحقيقه عن طريق الجهد المادي الذي يقدمه الزوج والجهد المعنوي الذي تقدمه الزوجة، هو الذي يجعل العلاقة بين الزوجين تامة الاندماج، ويجعل الحياة بينهما متكاملة

لدرجة اتحاد السعادتين، فنجاح الرجل في مهمة من مهامه نحو الهدف النهائي هي لحظة احتفال للطرفين، ونجاح للمرأة بنفس القدر الذي هو نجاح للرجل .

لقد تعودنا أن نرى هذا في أعمال العظماء والأدباء والمؤلفين، يظهر ذلك على شكل إهداء في أول الكتاب، أو على شكل اعتراف في مذكراتهم وسيرهم، وأولهم محمد ﷺ الذي أعلنها للعالم حين قال في الحديث الذي ترويّه عائشة رضي الله عنها، قال: «ما أبدلني الله ﷻ خيرا منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبتني الناس، وواستني بماله إذ حرمني الناس، ورزقني الله ﷻ ولدها إذ حرمني أولاد النساء»^(١).

عندما تصبح الأسرة أحادية الهدف، لن تجد المرأة تعاني شعور اللاشيئية، ولن تجدها تصارع من أجل شهادة ووظيفة ومكانة اجتماعية، لأنها ببساطة تشعر بكامل ذاتيتها من ذاتية زوجها، فمكانته مكانتها، ونجاحه نجاحها، وماله لها ولأولادها.

لقد سلمت من عقدة تحقيق الذات، ومن الخوف من سيطرة الرجل، ولم تنطل عليها حيلة الاستقلالية، لأنها اكتشفت أنها هي وزوجها ذات واحدة.

فمنذ أن تزوجها وناما تحت سقف واحد، اكتشفت أنها منه، وأنها خلقت له، فدفت ذاتها في ذاته، وأحلامها في أحلامه، ورأت فيه وجودها الآخر، ووجهها الذكر، ويدها الخشنة، لقد أصبح منذ تلك الليلة حلمها الذي تعيش من أجله، وأصبحت هي البطلة التي يريد أن ينتصر من أجلها.

(١) أخرجه البخاري (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧).

إنها لا تراه محور الكون، بل تراه الكون كله، لأن الكون بالنسبة لها يبدأ من سقف بيتها وينتهي عند باب البيت، فهي من المقصورات في الخيام التي وعد الله المؤمن بهن في الجنة ﴿حُرٌّ مَّقْصُورَةٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرَّحْمَنِ]، ولذلك فإن الكون كله يتجلى في بيتها، والعالم هو أسرتها، وحين يقبل الزوج يكون الكون هذا قد أضاء بشمس المظلة من باب الدار، وحين يخرج تغيب تلك الشمس، وتبقى هي كالقمر في ليالي المحاق، فإذا جاء زوجها أشرقت كما يشرق القمر في الليالي البيض، وهنا تدرك معنى قول هذه المرأة لزوجها أنت نور حياتي.

لقد أدركت منذ صغرها أن يدها الناعمة لا تصلح للأعمال الشاقة، وبدنها البض لا يصلح لزحام الحافلات، وصوتها الشجي لا يصلح للسوق والبيع والشراء، لقد خلقت ناعمة منعمة، ونشئت في الحلية، فهي في الخصام لا تبين ﴿أَوَمَنْ يُكَشِّفُ فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف]، لذلك رأت في زوجها تكميلاً لضعفها، ورأت في رجولته الفياضة، أماناً لها من ذلك العالم القاسي، فقررت أن تتحد معه في صفة حلولية اتحادية يتحول فيها الرجل إلى زوج، وتتحول فيها المرأة إلى زوجة، أي إلى وجه من وجهي عملة واحدة، منذ ذلك الحين صار زوجها يدها التي تبطش بها، ورجلها التي تمشي بها، وعينها التي تبصر بها، وأذنها التي تسمع بها، وقوتها التي تواجه بها العالم، هكذا عجنهما الحب فصاغهما كيانا جديداً، روحاً واحدة في جسدين، قلباً واحداً ينبض في كيانين.

إن فكرة الاستقلالية التي ترهق المرأة اليوم، وتجعلها تفرط في زواجها وأسرتها وتعرضها للعنوسة، ما هي في حقيقتها إلا انعدام لمعنى توحد الهدف لدى الزوجين، أي أنها أسرة بشخص لديه هدف، وشخص

يرى نفسه بلا هدف، أو هكذا يصورون له الحياة، فيصبح هدف المرأة أن تخرج من عباءة الزوج حتى تثبت أن لها معنى في هذا الوجود، أي أنها تتخلى عن الهدف المشترك مع زوجها لتوجد لها هدفا مستقلا، وهنا تكون قد ارتكبت خطيئتها الأكبر، ودخلت رحلة التيه.

ليست خطيئة بالمعنى الشرعي، لكنها خطيئة في شريعة الحب ودستور الزواج، خطيئة في فهم حقيقة الزواج، الذي هو الاندماج التام، الإدغام الكامل بدون غنة، إنه اتحاد في الهدف واتحاد في المشاعر واتحاد في المصير، إنها منذ اليوم الذي قررت فيه الاستقلالية قد أوجدت حياتين تحت سقف واحد، إرادتين متباينتين، مصلحتين قابلتين للتعارض والتصادم والتنافس والتنازع، لقد اختارت أن تتنازل عن مقامها كزوجة، لتصبح مجرد شريكة في المسكن والسرير والأبناء.



قرية شين، وقرية قاف

هذه القصة تبين لنا بشكل مختصر كيف تؤثر نظرية الخليفة وسكنه على الحياة العامة في المجتمع المسلم .
 قريتان متجاورتان، سنسمي إحداهما قرية القوامه، ونرمز لها بالرمز «قاف»، وسنسمي الأخرى قرية الشراكة، وسنرمز لها بالرمز «شين» .
 تتمتع القريتان بنفس المزايا، وتحتوي كل قرية على المعطيات التالية :

- ١٠٠ رجل .

- ١٠٠ امرأة .

- وتتيح موارد كل قرية ١٠٠ وظيفة .

فمجموع سكان كل قرية ٢٠٠ أي أن عدد وظائف كل قرية يساوي نصف عدد سكانها .

قررت القرية شين والمتشعبة بقيمة المساواة والشراكة أن تكون عادلة في تقسيم الوظائف بين الرجال والنساء، فحصل النساء على ٥٠ وظيفة وحصل الرجال على ٥٠ وظيفة .

بينما قررت قرية قاف والمتشعبة بقيمة القوامه أن تعطي الوظائف للرجال دون النساء، حيث حصل ١٠٠ رجل على ١٠٠ وظيفة .
 فماذا حصل في القريتين بعد عشر سنين ؟

وجدنا أن الرجال الذين حصلوا على الوظائف تزوجوا وأسسوا أسراً، بينما الرجال العاطلون عن العمل لم يتزوجوا ولم يؤسسوا أسراً، وبالتالي وجدنا في قرية شين ٥٠ عاطلاً عن العمل و٥٠ عانساً، بينما لم يكن في قرية قاف أي عاطل عن العمل ولم نجد بالتالي أي عانس. فأصبحت المعادلة هكذا: كل وظيفة حصلت عليها امرأة أعطتنا رجلاً عاطلاً وامرأة عانساً، أي أن كل وظيفة أخذتها امرأة أعطتنا مشكلتين.

ظهرت في قرية شين وظائف جديدة لم تظهر في قرية قاف، مثل حاضنات الأطفال، وانتشرت فيها المطاعم بسبب انشغال النساء في العمل، وبالتالي ظهرت العيادات الطبية المتخصصة في مشاكل الهضم، وظهرت العيادات المتخصصة في الاضطرابات النفسية لدى الأطفال.

زادت المشاكل الأسرية في قرية شين بسبب انشغال النساء عن البيوت وبسبب تمكنهن المالي، فكثر الطلاق، وظهر أطفال المطلقات الموظفات المنشغلات عن التربية بأخلاق مختلفة عن أخلاق أطفال قرية قاف.

زاد النمو السكاني في قرية قاف وتضاعف عددهم مرتين، بينما تباطأ النمو في قرية شين بسبب قلة الزواج وبسبب كثرة الطلاق وبسبب قلة الإنجاب لانشغال النساء بالعمل.

ظهرت في قرية شين مشاريع ذات طابع ترفيهي مثل محلات الماكياج وماركات الملابس الفاخرة، وانتشرت محلات المجوهرات والأكسسوارات، بينما ظهرت في قرية قاف مشاريع ذات طابع استثماري، وتمدد العمران بسبب زيادة السكان وظهرت المشاريع المرتبطة بالإعمار والتشييد والخدمات والمصانع الحرفية.

بعد خمسين عاماً توسعت قرية قاف خمسة أضعاف قرية شين،

وزادت ثرواتهم بسبب الاستثمار في مجالات العمران، بينما اضمحلت قرية شين بسبب قلة المواليد وقلة التوسع، وهكذا بدأت قرية قاف تفكر في الاستيلاء على قرية شين.

إن هذه الصورة المصغرة لقريتين صغيرتين تحتوي على معادلات اجتماعية ثابتة تتشكل من قواعد مترابطة، بحيث تبين لنا أثر القوامة المالية، ودور المال في صيرورته الطبيعية حين نسلمه للرجل فيسلمه بدوره للمرأة وينتج عن ذلك أسرة، بينما يفقد المال «قياميته» ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥] حين نسلمه للسفيه الذي يبذره أو المرأة التي تحبسه، فحتى لو كانت بعض النساء عاقلة في تدبير المال، إلا أنها لا تستطيع أن تجريه في مجراه الطبيعي وتؤسس به أسرة، وهذا سر من أسرار القوامة وسر من أسرار قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾.





المال القيام



إن المال سر من أسرار هذه الحياة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥].

□ قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في «السفهاء» الذين نهى الله جَلَّ شَأْنُهُ عبادَه أن يؤتوهم أموالهم. فقال بعضهم: هم النساء والصبيان».

ثم ذكر خمس عشرة رواية بهذا المعنى:

- حدثنا محمد بن بشار قال، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال، حدثنا إسرائيل، عن عبد الكريم، عن سعيد بن جبير قال: «اليتامى والنساء».

- حدثنا المثنى قال، حدثنا عمرو بن عون قال، حدثنا هشيم، عن يونس، عن الحسن في قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾، قال: «لا تعطوا الصغار والنساء».

- حدثنا ابن بشار قال، حدثنا عبد الرحمن قال، حدثنا يزيد بن زريع، عن يونس، عن الحسن قال: «المرأة والصبي».

- حدثني المثنى قال، حدثنا عمرو بن عون قال، أخبرنا هشيم، عن شريك، عن أبي حمزة، عن الحسن قال: «النساء والصغار، والنساء أسفه السفهاء»^(١).

(١) «تفسير الطبري» (٥٦١/٧).

إن الآية تتجه إلى السفهاء عموماً، لكنها تشير إلى هذا المعنى الذي ذكره المفسرون من وجوه كثيرة:

○ أن الآية في سورة النساء، التي تتناول شأن الضعيفين: المرأة واليتيم.

○ أن الآية جاءت في سياق إيتاء النساء صدقاتهن، فقبلها قال تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤]، ثم قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ﴾ فدل السياق على أن النساء داخلات في لفظ السفهاء.

○ أن الآية نصت على وجوب النفقة ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ فِيهَا وَكَسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ومعلوم أن الإنسان إنما ينفق على أبنائه وزوجاته.

○ أن طبيعة الإنسان الحرص على ماله، فهو لا يعطيه عادة للرجال إلا في حق واجب أو زكاة أو صدقة، فليس من المعقول أن تنهاه الآية عن إعطاء المال للسفهاء من الرجال، لأنه لا يعطيهم المال أصلاً إلا في إطار حق أو دين، فيكون الكلام لا فائدة فيه.

وعلى العموم فإن السفه المالي غالب على النساء، ولذلك تستهدفهن الحملات الإعلانية حيث إن ٨٠٪ من مشتريات العالم من النساء، وليس ذلك بعيب فيهن، بل هو سر من أسرار دورة المال، فلولا إنفاقهن ما قامت كثير من الأسواق والتجارات، لكن حين يكون المال بيد الرجل فإن ذلك الإنفاق يكون في حده المعقول.

حين نؤصل لمفهوم الخليفة وسكنه يظهر لنا المال كأساس من أسس هذا الاستخلاف، فهو وسيلته التي بها يتحقق، ولذلك علق الله به القوامه فقال: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، وعليه جعل المهر أول شرط من شروط الزواج، فهو تثبيت لهذه المنظومة التي قال الله فيها: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾، وقال ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾

[النساء: ٢٤] وقال في الطلاق ﴿وَأَتَيْتُهُمْ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: ٢٠] واستمر الكلام كله في المهر أن لا يأخذه الزوج بعد أن أفضى بعضهم إلى بعض .

لقد ظهر هذا المعنى جليا في الغناء الذي اقترحه الرسول ﷺ على عائشة حين زوجت جارية رجلاً من الأنصار ، قالت فكنتُ فيمن أهداها إلى زوجها ، فقال رسولُ الله ﷺ : يا عائشةُ إِنَّ الأنصارَ أناسٌ فيهم غَزَلٌ، فما قلت ؟ قالت : دَعَوْنَا بِالْبِرْكَهْ، قال : أَفَلَا قُلْتُمْ :

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَحَيُّونَا نُحَيِّكُمْ
لَوْلَا الْذَهَبُ الْأَحْمَرُ مَا حَلَّتْ بِوَادِيكُمْ
وَلَوْلَا الْحِنْطَةُ السَّمْرَا ء لَمْ تَسْمَنْ عَذَارِيكُمْ^(١)

فلولا هذا الذهب الأحمر الذي هو القيام لما قام هذا الزواج ، ولما حلت هذه العذراء بديارهم .

إننا حين نسلم المال الأساسي في المجتمع (الوظائف) للمرأة فإن ثروة المجتمع تفقد أهم خاصية من خصائص المال : القيام ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ ، فلا يصبح المال مثمرا ، أي لا يؤدي إلى بناء الأسرة ، وبالتالي لا يؤدي الغرض الأساسي منه في تحريك عجلة النمو في المجتمع ، والتي تبدأ من جلسة عقد الزواج ، أي لحظة تكوين نواة جديدة في المجتمع .

لقد فسدت الأسرة حين ضاعت القوامة ، وضاعت القوامة حين

(١) حسن: رواه أحمد (٣٨٠/٢٣)، والنسائي في «الكبرى» (٥٥٦٦)، وابن ماجه (١٩٠٠)، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند»، وضعفه الشيخ الألباني عند ابن ماجه .

تغيرت صيرورة المال داخل المجتمع، فبعد أن كان المال بيد الرجل ينفقه على المرأة، ويكون به قواما عليها، فتكون بحاجة للمال مستسيغة لقوامته، أصبح جزء كبير من المال في المجتمع بيد المرأة، وبالتالي نقصت القوامة على قدر ما ساهمت المرأة في النفقة داخل البيت، أي بقدر ما نقص من قوامة الرجل المالية، فاختل التوازن وتغير في المجتمع شيء كثير.



رويدك أنجشة!

أنجشة هذا صحابي جليل، فاز بشرف الحداء والتغني بين يدي رسول الله ﷺ، فكان يحدو بخير خلق الله ومن معه، ﷺ أجمعين، ومن عجيب أثر الصوت الحسن على الحيوان أن النوق تطرب لسماعه طربا يجعلها تحث السير وتقطع المسافات الطوال دون أن تحس بالتعب والإرهاق، فتمشي مشيا حثيثا يجعلها تهتز هذا شديدا.

روى البخاري بسنده عن أبي قلابة عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان في سفر وكان غلاما يحدو بهم يقال له أنجشة فقال النبي ﷺ «رويدك يا أنجشة سوقك بالقوارير»، قال أبو قلابة يعني النساء^(١).

قال أبو عمر في «الاستيعاب»: أنجشة العبد الأسود كان يسوق أو يقود بنساء النبي ﷺ عام حجة الوداع وكان حسن الصوت وكان إذا حدا اعتنقت الإبل فقال يا أنجشة رويدك بالقوارير. فخاف ﷺ أن يزج انبعاث الناقة للمشي النساء اللواتي على ظهورها، وتكلم هو بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه شفقة بهذا المخلوق الضعيف الذي قد يضر به هز الناقة أو يزعجه في هودجه.

ولا وجه لمن قال: إن رسول الله ﷺ خاف عليهن الافتتان بصوته وبشعره الذي فيه تشبيب بالنساء، فهو قول فيه رداءة نزه عنها تلك

(١) رواه البخاري (٦١٤٩)، ومسلم (٢٣٢٣).

الرفقة المباركة، ولو كان في ذلك فتنة وتشبيب بالنساء، لنهاه النبي ﷺ نهياً شديداً، وليس بمستساغ أن ينشد رجل بحضرة النبي ﷺ وأزواجه كلاماً فيه تشبيب وميوعة.

فما هو الرفق بالقوارير؟ وما هي حدوده؟

نتكلم أولاً عن الرفق، ثم نتكلم عن القوارير، فنقول وبالله التوفيق، إن الرفق كلمة تدل على نفسها بنفسها، وتبعث معانيها إليك من أصوات حروفها، فالرفق مادة دافئة تجد منها الرفيق والرفاق ومثلها الوفاق، وهو ضد العنف والشدة، ويُرَاد به اليسر في الأمور والسهولة في التوصل إليها، وأصل الرفق في اللغة هو النفع، ومنه قولهم: أرفق فلان فلاناً إذا مكّنه مما يرتفق به، ورفيق الرجل: من ينتفع بصحبته، ومرافق البيت: المواضع التي ينتفع بها، ونحو ذلك. ويقال: رَفَقَ - به، وله، وعليه - رَفَقاً، وَمَرَفَقاً: لَانَ له جانبه وَحَسَنَ صنيعه.

أما القوارير، فهن اللواتي تقرر بهن أعيننا، وتسعد بهن أنفسنا، أمهات وأخوات وزوجات، تكسرن الكلمة، وتبكيهن النظرة، يقتتن المشاعر، ويعشن على الحب، سماهن الرسول ﷺ قواريرا، تشبيهاً لهن بقوارير الزجاج الرقيقة، التي تحفظ بعناية، لأنها قد تكسر مع أي ضربة، لذا أوصانا بهن رسول الله ﷺ، وقال فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء». وفي رواية لمسلم: «إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج، وإن ذهبت تقيّمها

كسرتها وكسرها طلاقها» (١).

النساء خلقن من ضلع أعوج ضعيف، يحميه العضد والساعد، ويظل في الكنف والظل، لا يقوى على تحمل الضرب، وهو دوماً إلى جانب القلب، قريب منه يتغذى من دمائه، ويستمتع إلى دقاته، بخلاف الرجال الذين خلقهم الله من طين لازب، منبتهم الأرض القاسية، بينما منبت المرأة لحم ودم، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فمادة المرأة من الرجل ومادة الرجل من الأرض، لذلك يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «خلق الرجل من الأرض، فجعلت نهيمته في الأرض، وولدت المرأة من الرجل، فجعلت نهيمتها في الرجل، فاحبسوا نساءكم» (٢).

فالمرأة من الرجل، تبحث عنه منذ طفولتها، فتتعلق به أبا، وتهيم به زوجا، ويكون حبها الأكمل لابنها الرجل الذي يقف إلى جانبها أيام لم يبق لها في الدنيا إلا المصحف والسجادة، والنصائح التي تطرب بها أحفادها ليل نهار.

المرأة قصة عواطف، تظهر في مظاهر شتى، وتأخذ في الحياة أدوارا مختلفة، لكن دورها الأساسي لا يتغير، فهي البطلة في مسلسل حياتنا العاطفي.

فالرفق مع المرأة أن يكون الرجل سلسا لينا، يعفو ويصفح، ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

فإن عفوك عنها من خير ما تتقرب إلى الله به، فيعفو عنك كما عفوت عنها، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

(١) رواه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢٠٦/٢).

الرفق أن تجعل العقاب آخر الحلول، ولا تقول لها لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء لم تفعله لم لم تفعليه، وإنما تقول قدر الله وما شاء فعل، وتنصح وتبين، وتربي وتعلم، وتجعل أعصابك في قبضة عقلك، وتجعل الدعاء لها بديلاً عن الدعاء عليها، وتسأل الله في صلاتك أن يصلح لك زوجك، ويمتن عليك بهذه النعمة العظيمة التي امتن بها على أيوب عليه السلام في قوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فهذا دأب عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا، والذين يقولون: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنَ﴾ [الفرقان: ٧٤].

لو استطعت أن لا تغضب في توافه الحياة وتفاصيلها التي قدرها الله منذ آلاف السنين فافعل، واجعل نصب عينيك نصيحة رسول الله ﷺ حيث يقول لمن سأله النصيحة، وقال له أوصني، فقال له: «لا تغضب، لا تغضب، لا تغضب». والحديث في البخاري ^(١).

الرفق مع المرأة أن تضع القانون في البيت وتقبل بنسبة الثلث من التجاوزات والتهاونات، والثلث قليل في جانب المرأة التي لا تستقيم لك على طريقة كما قال رسول الله ﷺ، بل هي ما بين عقلها وهواها حائرة، ترى الشيء فتريده ولا تستطيعه، بما ركب الله فيها من قوى العاطفة التي تغلب عندها قوى العقل.

فرويدك في التعامل مع المرأة، وفي تقويمها وتربيتها فهي الضلع الأعوج الذي لا تستطيع العيش بدونه، ولا تحاول أن تقيمه لأنك إن جئت تقيمه كسرته، وكسرها طلاقها.

رويدك يا من تجعل المرأة خادمة في بيتك لا حديث معها إلا الأوامر

(١) (٦١١٦).

والنواهي، ولم وكيف؟ تدخل عابسا وتخرج مكشرا، تظن أنك بذلك تحفظ هيبتك، وما هي بهيبة، بل هي الشؤم والخيبة، وأي هيبة وأي خير في الابتعاد عن سنة نبيك وحبيبك ﷺ الذي كان أكثر الناس تبسما. رويدك يا من تنهال على زوجتك سبا وشتما لأي سبب ولأي خطأ، فلو عاملك ربك كما تعاملها لأهلكك ولتبرك تتبيرا.

رويدك يا من تضيّع حقوق زوجتك، وتتركها الليالي تلو الليالي، لا أنيس لها إلا الليل الموحش، والفراش البارد، وأنت بين أصحابك وأترابك، تميل مع رياح المرح يمينة ويسرة.

رويدك يا من تحملها على عبادتك، وترهقها لتصل إلى زهدك، فلم يكن رسول الله ﷺ يوقظ عائشة لتصلي معه صلاته من الليل، بل كان إذا أراد أن يسجد غمزها فجمعت رجلها حتى إذا قام مدتها، فرويدك في أهل بيتك، لا تنفرهم من الطاعة، ولا تحملهم على العزائم، فلمن في الرخص ما يناسب أنوثتهن وضعفهن.

رويدك يا من جعلت حياتها بين أربعة جدران، وحكمت عليها بالسجن المؤبد في زنازة الزوجية، وكبت فيها كل شيء جميل، رويدك فأنت الجاني على نفسك، وأنت أول الخاسرين، فإنك متى قتلت في المرأة حيويتها وانطلاقتها وعفويتها، لم يبق لك منها إلا جسد بال حزين، وروح كئيبة تغطيها ابتسامة جافة.

أما أنت، ،، يا من جعلت عصاك على عاتقك، وقدمت شرك وأخرت خيرك، واستخدمت قوتك التي وهبك الله للدفاع عن البيضة وحماية الحوزة، في الفتك بالبيضة، وتعذيب هذا الإنسان الذي لا يملك حولا ولا قوة، فلا أقول لك رويدا، بل سحقا لك وبعدا، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ۝٣٤﴾

[النساء].

وفي علوه ما يردع طغيانك وعلوك، ويكفيك قول رسول الله ﷺ فيك وفيمن يضربون زوجاتهم: «إنهم ليسوا بخياركم» (١).

ثم ألا تستحي من ربك الذي صور هذه المرأة وخلقها في أحسن تقويم، ثم رعاها بنعمه وحفظها بحفظه، إلى أن صارت متعة لك إلى حين، فجعلت تهوي عليها بسوطك هوي الحمير، وتميل عليها ضربا باليمين، وكأنها أصنام النمرود! تكسر منها العظام وتجرح منها الأبدان! تضربها ضرب العبد، ثم تأتي إليها آخر النهار، عدواني بالنهار شهواني بالليل!

أتضربها والله يقول: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]!! أتضربها وهي التي تحفظك في غيبتك، وتخدمك في حضرتك، وهي التي تربي ولدك، ومنها يتغذى الحنان والعاطفة!!

صحيح أن الإسلام شرع للرجل أن يضرب امرأته إن هي لم ينفع معها وعظ ولا هجران، لكن الشرع رفع بها حتى في هذا الضرب، وحدده بأن جعله ضربا غير مبرح، وجعله آخر الحلول، بل نهى عنه في مواضع كثيرة وجعله ضرورة يلجأ إليها من نشزت زوجته عن طوعه، فقال ﷺ: «لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجمعها في آخر اليوم»؛ البخاري (٢).

وعندما طاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن قال النبي ﷺ: «قد طاف بآل محمد ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن ليس

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢١٤٦)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٢٢)، وابن ماجه (١٩٨٥)، وصححه الشيخ الألباني.

(٢) رواه البخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥).

أولئك بخياركم»^(١).

ولا يمكن أن يكون أولئك بخيارنا، لأن خيار رجالنا هم خيارهم لأهلهم وأزواجهم، قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»^(٢).

لقد خلق الله الرجل والمرأة ليبلو بعضهم ببعض، وجعل بينهما ما تجر إليه الفطرة من المودة والرحمة، فرويدك في التعامل معها والرفق بها، تكون لك بابا مشرعا إلى رضوان الله، فإن كرهتها فعسى أن تكرهها ويجعل الله لك فيها خيرا كثيرا.



(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

الخاتمة

بعد سنوات من كتابة المسودة الأولى لهذا الكتاب، يسرني - أيها القارئ الكريم - أن أضعه اليوم بين يديك، وأنا أشعر بأني ما أعطيت المعنى حقه، ولا أخرجت لك كل ما في الشريعة الإسلامية من أحكام مرتبطة بهذا المفهوم، سواء في أحكام تشريعية مبنية على هذا المعنى، أو ما في الإشارات والحوادث في السيرة النبوية من المعاني التي تدل على تشبع مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم بهذه الروح التي ترتب هذه العلاقة الهرمية بين الرجل والمرأة بشكل طبيعي يظهر جليا في قول رسول الله ﷺ لأصحاب بيعة العقبة: وأن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم، بل يظهر قبل ذلك في قصة موسى عليه السلام إذ يقول لأهله امكثوا، ليتولى هو مهمة إتيانهم بخبر أو جذوة من النار لعلهم يصطلون.

إن جزءا كبيرا من فشلنا كأمة صاحبة منهج رباني، يكمن في فقداننا للصورة التي كان عليها مجتمعنا المسلم، فقد طال علينا الأمد تحت الهزيمة الحضارية التي جعلتنا نعيش وفق نموذج غربي لم نستطع التخلص منه فصرنا نحاول جاهدين أن نسلك أحكامنا الشرعية فيه، فظهرت هذه الأحكام غريبة غير متجانسة، وأصبحنا نفخر بامرأة بكامل حجابها الشرعي تقف في منصة بين الرجال لتحصل على جائزة في العلوم الفيزيائية، لنقول بنشوة لهذا الغائب الحاضر في وجداننا، انظر أيها الغربي فديننا لا يصطدم مع حضارتك، والحجاب لا يمنع من وصول المرأة لأعلى مراتب العلوم، دون أن نسأل أنفسنا هل هذا مكانها أصلا؟ ولماذا لم تفعل المرأة ذلك من قبل؟ وما دام الرجل

يقوم بهذا لماذا نقحم فيه نساءنا؟ فهل كنا ظالمين للمرأة؟ أم أن تهمة احتقار المرأة هي التي تدفعنا للزج بها في مضمار الاستخلاف التأسيسي، حتى صرنا نحتقر قرارها في البيت ونحكم على نجاحها بمدى قيامها بدور الرجل؟

إن تغيب حواء عن مشهد السجود لآدم في لحظة إعلانه خليفة لله في تنفيذ أحكامه وإقامة شريعته، لم يكن إلا تخفيفاً عن حواء، ورحمة بها أن تؤذى يداها الناعمتان تحت وطأة المهام الشديدة المترتبة على هذا السجود الأزلي، والذي كادت تطالب به حواء لولا حرمة السجود لغير الله «لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد».

إن صلاح الأمة لن يتم إلا عبر إصلاح الأسرة، وإن صلاح الأسرة لن يتم إلا بعودة المرأة إلى دورها، وإن المرأة لا تعود إلى دورها إلا إذا قام الخليفة بدوره وفرغها لدورها وأقنعها به منذ نعومة أظافرها، فإذا لم يقم بدوره، خرجت هي لتقوم بذلك الدور، واعتذرت بما اعتذرت به ابنتا شعيب ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص].
والحمد لله رب العالمين.

